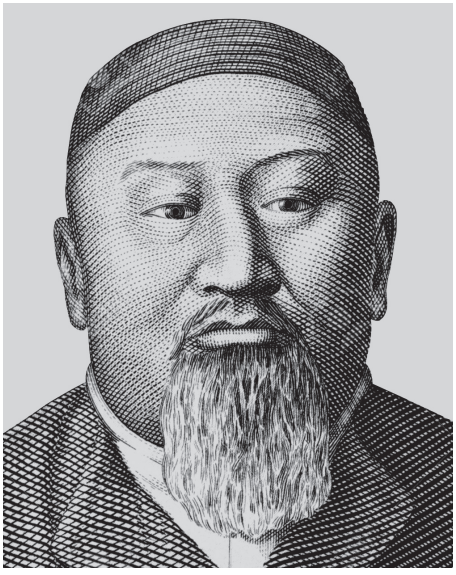
كتاب الدوحة

آباي

كتاب الأقوال

ترجمة :عبدالسلام الغرياني





آبـــاي

كتاب الأقوال

ترجمة عبدالسلام الغرياني

كتاب الدوحة 54

يوزع مجاناً مع العدد 97 من مجلة الدوحة نوفمبر 2015

آباي
كتاب الأقوال

ترجمة عبدالسلام الغرياني

الناشر :
وزارة الثقافة والفنون والتراث - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

الإخراج والتصميم: علاء الألفي - مجلة الدوحة

المواد المنشورة في الكتاب تُعبِّر عن آراء كتّابها ولا تُعبِّر بالضرورة عن رأي الوزارة أو المجلة.

مقدِّمة

القرن التاسع عشر، تقود أوروبا العالم في الازدهار والتنوير، بفضل أشخاص عظماء، ما زال التاريخ يدين بفضلهم على الإنسانية. لقد قادوا مجتمعاتهم إلى التحرُّر من قيود الجهل والتخلُّف، وظهرت تيارات قويّة استقطبت آلاف المؤيّدين والمتحمّسين، لما فيها من الصدق والمعرفة والخلاص من نير الظلام والإفك والعبودية، فيما ظل البقيّة تحت سياط الاضطهاد الفكري والتقاليد البالية، لكن السجيّة الإنسانية موجودة في كلّ زمن وكلّ عصر.

في هذه الأجواء، وفي منتصف ذاك القرن، وُلِد إبراهيم قونانباي عام 1845، في جبال جنكيز، لعائلة معروفة في كازاخستان الشرقية، والده متزوّج بأربع نساء، وهو إقطاعي وشيخ قبيلة طوبقطي. الوالدة (أولغان) أثّرت في الطفل، وحَظِي برعايتها الكاملة، وكانت تُطلِق عليه اسم (آباي) تحبُّباً، وهو تصغير لإبراهيم، وتعني الكلمة (المتمعِّن الحذر) أيضاً، وهذا

الاسـم صاحَبَـه طـوال حياتـه.

أرسـله والـده إلـى مدرسـة دينيـة يديرهـا المُـلّا أحمـد زيـرا، لكـنّ الفتـى خالـف زمـلاءه الذيـن يدرسـون الديـن فقـط، بـأن وسّـع مـن دائـرة معارفـه باهتمامـه بالشـعر، موقظـاً روح الكلمـة البديعـة التـي غرسـتها فيـه جدّتـه (زهـرة) التـي كانـت تغنّـي لـه الأهازيـج والألحان، إضافـة إلـى الحكايـات والأسـاطير وقصـص الأبطـال.

أخـذ يتـردّد إلـى المدرسـة الروسـية، بالإضافـة إلـى دراسـته فـي المدرسـة الإسـلامية، وعشـق اللغـات الشـرقية، وواظـب علـى تعلُّـم العربيـة والفارسـية.

كانـت الأغانـي والقصائـد تنتشـر فـي مجتمعه عن طريق المشـافهة، ويتناقلهـا جيـل بعـد جيـل. وعنـد تمكّنـه مـن اللغـة والكتابـة، أخـذ يـدوّن تلـك الأشـعار، ويزيـد عليهـا مـن عنـده، ويطـوّر القصائـد، ويبـدع فـي صقلهـا؛ ممـا يـدلّ علـى موهبتـه المبكّـرة فـي الأدب.

تجربتـه هـذه، جعلـت منـه خطيبـاً مُفَوَّهـا، وكان والـده يعـوّل عليـه فـي خلافتـه بالمشْـيَخة، مفاخـراً بابنـه الموهـوب.

اسـتدعاه والـده ليدرّبـه علـى إدارة شـؤون القضـاء والأعمـال الإداريـة، ليتصـدّى لأعدائـه المنافسـين، لكـن الشـاب الـذي جُـرّ عنـوةً إلـى هـذه القضايـا المرهِقـة، غالبـاً مـا كان يعـارض مصالـح أبيـه ومطامعـه، بتقديمـه للحـلّ العـادل فـي كثيـر مـن القضايـا. وحدثـت خلافـات حـادّة بينهمـا قاربـت حَـدّ القطيعـة،، لكـن المسـألة حُلَّـت

عندما بلغ (آباي) الثامنة والعشرين، بانصرافه إلى تعلُّم اللغة الروسية التي انقطع إليها مُدّة طويلة.

أعجب بمؤلَّفات كلّ من بوشكين، وليرمنتوف، وكريلوف، وتولستوي، وأعمال أخرى لأدباء ألمان، مثل غوته، وترجم أعمالهم إلى اللغة الكازاخية، بأسلوب يفهمه الناس.

إلى جانب ذلك، كان يتمتَّع بموهبة التلحين، فلحّن أشعاراً استحدثت في الشعر الكازاخي أشكالاً جديدة، لم تكن معروفة سابقاً.

لقد تداول الكازاخ، في ذلك الوقت، الملاحم الشرقية الكبيرة، بألفاظ (آباي)، مثل: الشاهنامة، ومجنون ليلى، وكير أوغلي.

أرسل أبناءه إلى المدرسة الروسية: ابنته (غولبادان)، وابنيه (عبدالرحمن) و(معاوية)، وكان (معاوية) وابن (آباي) البكر (عقيل) قد أصبحا شاعرين فيما بعد، ونظم (معاوية) ملحمة «مقدام ـ قاسم» بتوجيه من (آباي)، ونظم عقيل ملحمة عاطفية بعنوان «داغستان».

لقد توالت النوائب على المفكِّر والأديب الكبير؛ فبالإضافة إلى قلقه الوجودي، نزلت عليه فاجعة وفاة ابنه (عبدالرحمن) بداء التدرُّن الرئوي، ورثاه بقصائد حزينة، ثم لحقت به نائبة أخرى بوفاة ابنه (معاوية)، الشاعر المبدع، بالمرض نفسه الذي

قضى على شقيقه.

بعد أربعين يوماً من وفاة (معاوية)، توفي (آباي)، وهو في التاسعة والخمسين، وذلك عام 1904، ودُفِن قرب منزله بالقرب من جبال جنكيز.

يصل (آباي) أوج إبداعه في ثمانينيات القرن التاسع عشر مع «كتاب الأقوال»، ومضمونه الأساس يدور حول تأمُّلات الكاتب في مغزى الحياة ورسالة الإنسان، وعن الشعب وعذابه؛ بكلمات تئنّ بالألم والشكوى. و«الأقوال» نظرة ثاقبة إلى مجتمعه، يصف فيها حياة شعبه، وينتقد- بشدّة، وبسخرية- السلبيات التي تؤخِّر تقدّم المجتمع إلى الأمام. في النصف الثاني من القرن التاسع عشر دعا، بحماس، إلى التخلُّص من كلّ ما يحطّ من كرامة الإنسان، كما دعا إلى التسامح، وإلى سلوك طريق المعرفة، وقَدَّم الإسلام المستنير بمنأى عن التعصُّب.

يُعَدّ (آباي) عميد الأدب الكازاخي الحديث، ويعتزّ باللغة الكازاخية وبالشعب الكازاخي. وبالمقابل، يجلّ الكازاخ أديبهم الكبير، ويتغنّون بشعره، وبأدبه، وبقصصه، وبحكمه.

كتب أعماله باللغة الكازاخية القديمة السائدة ذاك الوقت، ذات الحروف العربية، والآن، نجد أعماله باللغة الكازاخية الحديثة وباللغات الأخرى، حيث تُرجمت مؤلَّفاته، وبخاصّة «كتاب الأقوال»، إلى أغلب لغات العالم.

إنـه معـروف علـى المسـتوى العالمـي، كشكسـبير، وغوتـه، وبوشـكين.

لـم يصلنـا سـوى مختـارات مـن شـعره، بالعربيـة، نشـرتها دار التقـدُّم، فـي موسـكو، عـام 1970، بترجمـة جيلـي عبدالرحمـن.

«كتـاب الأقـوال» أصبـح مـن أنبـل الكتابـات الجـادّة فـي مسـيرة الأدب العالمـي.

فـي كازاخسـتان، ثمّـة جامعـة باسـمه، ولـه تماثيـل فـي كثيـر مـن مـدن كازاخسـتان، وكذلـك فـي موسـكو.

عام 1995، أُنتِج فيلم عن حياته بعنوان «آباي».



آباي

كتاب الأقوال

1

سواء أكنتُ بصحة جيدة أم لم أكن، فقد عشت حياتي، على امتدادها، مفعماً بالكفاح والنقد والنقاش والمناظرة، معانياً وقلقاً، لأجد نفسي، مع ما تقدَّم من سنوات عمري، تَعِباً من كل شيء.أدركت عبث جهدي وفراغه، ومعنى وجودي. بماذا أشغل نفسي، الآن وبقية حياتي؟ أنا في حيرة، لأنني لم أجد إجابة عن هذا السؤال.

هل أحكم الناس؟ الناس غير قابلة للحكم. ليضع أحد ما على كاهله هذا العبء: شخص مريض بداء الحكم العضال، أو آخر متحمِّس بقلب متوهِّج. ذلك أن الله أعفاني من هذا الحمل الذي هو فوق طاقتي! هل أضاعف قطعان أنعامي؟ لا، أبداً، دع الشباب ينمّون دوابهم، إن هم في حاجة إليها؛ لأنني لن أظلم مساءات أيامي راعياً للمواشي لأهبَ المتعة للأوغاد واللصوص والطفيليين.

أأشغل نفسي بالتعليم؟ لكن، كيف أنهمك في ثقافة، عندما لا أجد أحداً أتبادل معه كلمة ذات معنى؟ ثم، لمن أعطي معرفةً جمّعتها؟ من أسأله عن شيء، أنا نفسي لا أعرفه؟ ما جدوى الجلوس في سُهْب قفر، والأرشين[1] في اليد، محاولاً بيع القماش؟ كثير من المعرفة تُصبح بطعم المرارة وتعجّل بنهاية العمر، عندما لا تجد أحداً بجانبك يشاركك البهجة والحزن.

أأختار نهج الصوفية، وأهب نفسي لخدمة الدين؟ لا، أخاف من هذا الفعل أيضاً. هذه المهمّة تتطلّب السكينة، والسلام التامّ للذهن. لكني لم أعرف السلام في روحي أو حياتي! ثم ما نوع التقوى الموجودة، الآن، بين الناس، وعلى هذه الأرض!؟.

هل أُعَلِّم الأطفال؟ لا، هذا- أيضاً- فوق طاقتي. في الحقيقة أستطيع تعليمهم، لكن، لا أعرف ما الذي يجب أن أعلِّمهم إياه، وكيف؟ ولأيّة وظيفة، ولأيّ غرض، ولأيّ نوع من المجتمع أعلِّمهم؟ كيف أعلمهم وأوجّههم في طريق، يستطيعون فيه تطبيق ما تعلَّموه، وبشكل مفيد؟.

إلى هنا، أجد نفسي غير مؤهَّل للقيام بأيّ عمل.

حسناً، أخيراً قررت: من الآن فصاعداً، سيكون القرطاس والقلم

1- - أرشين: قصبة قياس للطول تساوي 28 إنشاً، استُعملت قديماً.

عزائـي الوحيـد، سـأدوّن أفـكاري، لعـلّ شـخصاً يجـد فيهـا شـيئاً مفيـداً، ليستنسـخها أو يتذكّرهـا. وإذا لـم يجـد فيهـا مـا يحتاجـه، فسـتبقى لـي وحـدي، علـى أيّـة حـال.

والآن، ليس لديَّ شيء أهمّ من هذا الأمر.

2

في طفولتي، اعتدت سماع الكازاخ يسخرون من الأوزبك: «أنت تقفز في تنورة واسعة، تجلب السَّمار[1] من بعيد لتسقّف بيتك بالقشّ! تنحني وتُرجع قدماً إلى الوراء، ماسحاً الأرض تحيّةً، عندما تقابل شخصاً ما، لكنك تحقّره من ورائه. تخاف من كل أجمة، تثرثر دون توقُّف، لهذا ينادونك بـ «سارت سورات»[2].

إن صادف الكازاخي واحداً من الـ «نوغاي»[3]، يسخر منه، ويوبّخه بعنف أيضاً: «النوغاي يخاف من الجمل، وسريعاً ما يتعب من مفرج ساقيه على الحصان، ليكمل بقية طريقه ماشياً. يذهب

1- - السَّمار: نبات تُستعمل أوراقه الأسطوانية الطويلة في صنع مقاعد الكراسي، وأشياء أخرى.

2- - سارت سورات: عبارة كازاخية تعني: (شخص ثرثار).

3- - نوغاي : مفردة كازاخية، الاسم الذي يطلقه الكازاخ على التاتار.

بعيداً ليكون جندياً أو تاجراً، الجميع يمطر النوغاي: «نوكاي[1] هو ما يجب أن ننعتك به، وليس نوغاي!».

أما عن الروس فقد اعتادوا القول: «ذات مرّة، حاول ثور من نوع أورس[2] ذي الرأس الأحمر البحث عن قرية من طراز اوول[3] في نوبة عَدْو سريعة، فكسر عنقه وهو يبحث عنها، الروسي يفعل ما يخطر في باله، ويصدّق كل ما يقال له».

«يا الله!». قلت عندها بفخر. «صرخت، بأنه ليس ثمّة، في العالم، من هم أكثر إجلالاً ونبلاً من الكازاخ!»، قد يبهجني مثل هذا الحديث ويسلّيني، لكن ما أراه الآن كالآتي:

ليس ثمّة شجرة إلا ويستطيع الأوزبكي الاعتناء بها، ليس ثمّة بقعة إلا وزارها تجّارهم، ليس ثمّة شيء إلا وطوّرته أناملهم الرشيقة. رجالهم ينعمون بالسلام، ولا يبحثون عن أعداء. قبل مجيء التجار الروس،كان الأوزبك يمدّون الكازاخ بالملابس في الحياة، وبأردية الدفن عند الموت، إنهم يشترون قطعان الماشية

1- - نوكاي : مفردة كازاخية تعني: (بليد، غبي)، وهنا تلاعُب بالكلمات بين نوغاي و نوكاي.

2- - أوروس: ثور بري منقرض، سلف الثور الحالي، كان يوجد، على نطاق واسع، في النصف الشرقي من الكرة الأرضية، يتميز بالضخامة، وبجمجمته المسطّحة.

3- - أوول: قرية محصَّنة، كانت موجودة في أنحاء جبال القوقاز، وخصوصاً في داغستان، مبنية من الحجر على أحد التلال أو المنحدرات من أجل توفير حماية ضدّ الهجمات المفاجئة، وهي عصية على الاقتحام، بسبب نظام البناء الداخلي فيها. أنهكت الروس كثيراً.

كلّهـا مـن الـكازاخ، عندمـا لا يتفاهـم الأب مـع ابنـه فـي تقسـيم القطعـان بينهمـا.

الآن مـع مجـيء الـروس، تبنّـى التاتـار التجديـد بشـكل أسـرع مـن غيرهـم. يعلـون مـن شـأن «البيّـات»[1] ويعلّمـون الملالي، هـم أصحاب مهنـة وتـرف وكياسـة، نعـم الأوزبـك يملكـون كل ذلـك. انظـر إليهـم الآن، يسـتطيعون تكويـن جيـش مهـاب، يتحمّلـون الحرمـان برزانـة، يواجهـون المـوت باتّضـاع، يشـيّدون المـدارس ويحمونهـا، ويحترمون الديـن، يعملـون بمشـقّة، وينمّـون ثروتهـم، يلبسـون بشـكل متأنِّـق، ويعرفـون المـرح.

لسـنا نحـن الـكازاخ. فكـرت: نعمـل عنـد «بيّاتهـم» مـن أجـل كسـرة خبـز، لا يسـمحون لبيّاتنـا بدخـول منازلهـم، يقولـون: «أنـت، أيّهـا الكازاخـي: أرضيّـة بيتنـا ليسـت لـدوس حذائـك القـذر».

لن أتكلَّم على الروس، لن نستطيع حمل شمعة مقابل خدماتهم.

أين ذهب مرحنا السابق؟

أين ضحكنا السابق؟

1- - بيّات : جمع «بيْ». بيْ، وبيه، و بك: لقب تشريف في ليبيا و تركيا ومصر، جرى استعماله. البك: حاكم مقاطعة ثانوية في الإمبراطورية العثمانية. الباي: لقب حكّام تونس القدماء.

3

عندما يكون الكذب سبباً في نفور الكازاخ، بعضهم من بعض، من مرض العداء المتفشّي بينهم، لماذا هم حديثهم نفاق، ويبليهم الكسل، ومتهافتون على امتلاك القوّة؟

حكماء الدنيا لاحظوا من قديم الزمان: الكسول- عموماً- جبان وضعيف الإرادة، ضعيف الإرادة ومتبجّح: المتبجّح جبان وغبيّ وجاهل: الجهول ليس لديه إلماعة الاحترام، زد على ذلك أنه طفيلي ونهم، منطلق العنان وغير صالح لشيء: لا يقدّم أيّة فائدة للناس من حوله.

مصدر هذه الرذائل أن شعبنا منهمك في شيء واحد لا غير: أن يمتلك أكبر عدد ممكن من المواشي ليظفر بالفخر والاحترام. هل زرعوا أرضاً أو مارسوا التجارة؟ هل اهتموا بتعلُّم الفن؟ لم

يتحوّلوا إلى هذه الاهتمامات قَطّ.

الآباء يكاثرون قطعانهم، سيبذلون ما في وسعهم لضمان نموّ قطعان أبنائهم، يعهدون بها إلى الرعاة، فيما ينصرفون إلى حياة الكسل والتبطّل، يأكلون اللحم بِنَهَم، ويشربون «الكومس»[1]، يلهون بالنساء الجميلات، ويمتِّعون أبصارهم بسباق الخيل.

أخيراً، يصبح عشب المرعى الشتوي قصيراً جداً، يستخدمون نفوذهم ومكانتهم، وبالسلب والخداع والتملُّق يسطون على أراضي جيرانهم، هذا الشخص الذي تعوّد على السلب سرعان ما ينهب جاراً بعد آخر، أو يسرق آخر غادر بلدته.

هل يأمل هؤلاء القوم الخير، بعضهم من بعض؟ عندما يعمّ الفقر يعمّ العمل التافه الرخيص. عندما يكثر المعدمون تغزر المراعي الشتوية العامّة. جاري متلهِّف إلى خرابي، وأنا متلهِّف إلى وقوعه في الفقر المدقع. شيئاً فشيئاً، ينمو الحقد الدفين فيغدو عداوة مُرّة ظاهرة. نتقاضى بمكر، ننقسم إلى زمر، ونرشو أصحاب النفوذ من أجل الدعم، لكسب فائدة ضدّ الخصم، ثم نتدافع على المنزلة الاجتماعية، تعويضاً.

الخاسر لن يكدح أو يعرق، سوف يبحث عن النفوذ عند آخر

1- - كومس : شراب مخمُر كانت تصنعه- في الأصل- قبائل آسيا الوسطى، من لبن الفرس.

بشكل مراوغ، لن يُظهر ميلاً للتجارة أو لحرث الأرض، سيقف بجانب شخص ما تارةً، وبجانب فريق آخر تارةً أخرى، يبيع نفسه بالرخيص، ويتورّط في الفاقة والخزي. ليس ثمّة نهاية لسلب السهْب. إن كان ثمّة وحدة بين أهلنا فلن يغفروا للص أن يستعمل دهاءه ومساندة آخرين له، ليستمرّ في سرقته الصفيقة.

الأبناء الأبرياء، وهم على درجات الحياة، يكونون ضحايا لهذه الأعمال الإجرامية، على قاعدة اتّهامات باطلة، ويكونون مادّة للذلّ والاستجواب.

الشهود على استعداد للقسم أنهم لم يشاهدوا، أو يسمعوا ما يشوّه سمعة رجل صادق لمنعه من تولّي وظيفة أو منصب. لإنقاذ نفسه، يلجأ المُضطهَد إلى الأوغاد أنفسهم، مضحّياً بكرامته، وإن لم يذعن لهم فسوف يجني على نفسه، سوف يعاني المشقَّة والعوَز، سوف لن يجد مكاناً يليق به.

لكسب القوّة بالخداع والمخاتلة، رئيس المقاطعة (المتصرِّف) يتجنَّب مَنْ هو صادق، والناس البسطاء، ويعدّهم كما البلاء، يبحث عن غريب مثله، ماكر وملتوٍ، يخيف الخصوم.

ثمّة قول يزداد تداوله الآن: المهمّ والمؤثِّر، ليس صلابة الموضوع وقوة الحجّة، بل الشخص المناسب للتأثير في الموضوع.

رؤساء المقاطعات (المتصرّفون) يُنتخَبون لثلاث سنوات: تمضي السنة الأولى في سماع كلّ أشكال الشكاوى للناخبين: «لا تنسَ أننا نحن من انتخبك» والسنة الثانية في صراع الخصوم والمتنافسين، وفي الثالثة ينشغل بالحملة الانتخابية. ماذا تبقّى إذاً؟

أشاهد قومي يغرقون، بشدّة، في النزاعات، خرجت باستنتاج هو: يجب أن يُنتخب الحاكم (المتصرّف) الذي يتوافر على تعليم روسي، مهما كان قليلاً. وإن لم يوجد ذلك الشخص، أو أن الناس لا تريد ترشيحه، فليكن الحاكم معيَّناً من قِبَل الإدارة التنفيذية للمقاطعة الكبرى ومن الحاكم العسكري.

هذا سوف يكون مفيداً في عدّة نواحٍ: أولاً: طموح الكازاخ في تعليم أطفالهم، ثانياً: بعد وقت، ليس بطويل، يخضع المتصرّف لهوى الأقطاب المحليّين، لكنه يتلقّى الأوامر من السلطات العليا. لتجنُّب الاعتراضات المحتومة والاتّهامات، المعيَّن لن يكون موضوعاً لأيّ حكم أو رقابة محليّة، وتأكيد شيء بشأنه.

أُتيحت لنا الفرصة لرؤية عبث القضاة المحلّيّين المنتخَبين في كلّ مقاطعة. ليس ثمة من يستغني عن العدالة. ولوجوب التحصُّن بالمشورة، من الجوهري أن نستحضر قوانين الأسلاف وشرائعهم:

«الطريق المضيء» لقاسم خان، و«الطريق القديم» لعاصم خان، و«القواعد السبع» لأزطاوق خان. لكن هذه الشرائع أصبحت عتيقة ومهملة بفعل الزمن، وتتطلَّب التنقيح والتفسير والتقويم، إن كان ثمة من يستطيع القيام بذلك في مجتمعنا. الذين يعرفون أسلوب حياة الشعب الكازاخي يقولون: «عندما يلتقي اثنان من القضاة المحلّيّين سيكون ثمّة أربعة خلافات، بالتأكيد». النقيصة الأبرز في عدالة هؤلاء القضاة وفي عددهم، هؤلاء الذين يسمعون القضايا، كما أنها تكمن في تعقيد الحكم القضائي في النزاعات. لماذا عدد القضاة يزداد؟ أليس من الأفضل انتخاب ثلاثة أشخاص يتميّزون بتعليم وذكاء، في كلّ مقاطعة، لفترة غير محددة، ونستبدل، فقط، من يكون سلوكه غير لائق؟ لتُحدّد النزاعات القانونية من قِبَل حَكَمين: واحد يُختار من كلّ طرف، والوسيط مقبول من الجميع. عندما يفشلون في التحقُّق من الصواب، يجب، عندها، الرجوع إلى القضاة الثلاثة الدائمين. عند ذلك، لن يطول أمد القضية.

4

لاحظ الأسلاف، منذ زمن بعيد، أن الضحك دون سبب كحالةِ مَنْ هو ثَمِل. نرى، الآن، أن الثَّمالة تقود إلى سوء السلوك، فالحديث مع السكّير يوجع الرأس.

المرء الذي ينغمس، على نحو متواصل، في مرح لا معنى له، يتجاهل وعيه، ويهمل شؤونه، ويخطئ خطأً فادحاً في حَقّ من يُوقع به القصاص، إن لم يكن في هذا العالم، ففي العالم الآخر.

مَنْ لديه رؤية تأمُّلية واسعة، هو حصيف ومتبصّر وحَذِر في حركته، في هذه الحياة، وفي مواجهة الموت، التعقُّل في التفكير والعمل هما عماد سعادته، لكن، هل يعني هذا أننا يجب أن نعيش في بؤس؟ هل يجب على أرواحنا أن تعرف الكآبة فقط؟ كلّا، على الإطلاق. لا أقول هذا الكلام لأنه علينا أن نحزن دون

سبب، بل يجب أن نتوقّف ونفكّر في إهمالنا، وسبل السعادة والمرح نتركها إلى حينها، ليس المرح الكاذب ما يشفي أرواحنا، بل العمل العقلاني المفيد، الذين يسمحون للروح الضعيفة بأن تستقرّ داخلهم يتخلّون عن التفكير السليم دون الظفر بأيّ عزاء أو سلوى. إذا ضحكت بحماقة وغباء تفقد المبرِّر الأخلاقي للعمل الخلّاق، إذاً، لا تفرح بهذا الغباء الأخرق.

عندما ترى شخصاً ما يعيش حياة هانئة، ويضحك بقلب سعيد، ببهجة صادقة، يعفّ بنفسه عن العمل الخاطئ ومعاقرة الخمرة، مآثر هذا الشخص تستحقّ المحاكاة، وهي مثال جيِّد لتعليم التواضع.

ليس كلّ ضحك ومرح يستحقّان الاستحسان، ثمّة ضحك لا يأتي من فؤاد المرء، كمن يتكلَّم فجأةً، بكلام أجوف، ويُحدث ضجيجاً مُفزعاً، فقط، بقصد الابتهاج الكاذب.

يأتي المرء إلى الدنيا باكياً، ويغادرها متأسِّفاً. بين حدث المجيء وحدث المغادرة، ينفق أيّامه في جدالات بائسة، ويسرف في النزاعات التافهة، غير مدرك فرادة الحياة وكيفية الاستفادة منها، ولن يذوق طعماً للسعادة الحقيقية.

سيتوقّف ليراجع أفكاره، عندما يرى حبّات رمل حياته تنهار

دفعة واحدة، عندها، فقط، سيتّضح أنه ليس ثمّة كنز على وجه الأرض قادر على إطالة عمره يوماً واحداً.

أن تعيش بالأكاذيب، بالخداع والاستعطاء! أن تكون عديم القيمة كالأوغاد!

ليكن إيمانك بالله دافعاً لثقتك في قوتك وقدراتك.

الأرض القاحلة تهب الغلال- أيضاً- لمن يكدح وينكر ذاته، بأمانة وتواضع.

5

الحـزن يجلـب الكآبـة إلـى الـروح، يبـثّ القشـعريرة فـي البـدن، يجعـل المـرء فاقـداً لحـسّ فعـل الخيـر، عندهـا تنفجـر الانفعـالات بالكلمـات أو الدمـوع. رأيـت النـاس يتضرّعـون: «يـا اللـه، اجعلنـي خاليـاً مـن الهـمّ كمـا الرضّـع» يتخيّلـون أنفسـهم بأنهـم يقاسـون الغـم والبليـة وسـوء الحـظ، ويعتقـدون بأنهـم أكثـر حساسـية مـن الأطفـال. يمكـن الحكـم علـى هـذا السـلوك مـن خـلال الأمثـال: «إن كنـت سـتعيش حتـى الظهيـرة فـزوّد نفسـك باحتياطـي لطـوال اليـوم». و«حتـى الأب يكـون غريبـاًبالنسـبة إلـى المتسـوِّل»، و«قطيـع الماشـية بالنسـبة إلـى الكازاخـي هـو جـزء مـن لحمـه ودمـه»، و«الرجـل الثـري يشـعّ الضـوء مـن مُحَيّـاه» و«الفقيـر قـاسٍ كالحجـر» و«الفـارس والذئـب لا يَحِيْـران فـي غذائهمـا»، «المتبطِّـر يعهـد بقطعانـه إلـى الآخريـن، إلا إذا كان ليـس لديـه مـا يشـغل نفسـه بـه»، و«اليـد التـي

تأخـد تعطـي»، و«الـذي يخطّـط لأن يكـون ثريّـاً، هـو دائمـاً علـى حـقّ»، و«إن لـم تسـتطع الاعتمـاد علـى «البـيّ» لا تتّكل علـى الله أيضـاً »، و«إن قرصـك الجـوع اركـض إلـى وليمـة فـي عـزاء ميّـت»، و«كـن حـذراً مـن بحيـرة بـدون ميـاه، و«مـن النـاس الذيـن لا يعرفـون الرحمـة».

ثمة الكثير من هذه الأمثلة.

الآن، ماذا تريد هذه الأمثلة أن تخبرنا؟

إنهـا ليسـت معرفـة أو تعليـم ولا سـكينة أو عدالـة، الكازاخـي يقلقـه أمـر وحيـد عزيـز، هـو كيـف يكـون غنيّـاً. لذلـك يلـفّ ويـدور ويتملّـق الأغنيـاء، وإن لـم ينجـح سـيعتبر العالـم بأسـره عـدوّاً لـه.

سـوف لـن يتـردّد فـي سـلب، حتـى والـده. ليـس مألوفـاً لدينـا لـوم مَـنْ، واسـتهجان مـن!

مـن يكسـبون قطيعـاً مـن الماشـية بالخـداع والسـلب والنهـب أو جرائـم أخـرى. إذاً، بـمَ يختلفـون عـن الأطفـال؟

الأطفـال يخافـون مـن لهـب الموقـد، فـي حيـن لا يخـاف الكبـار مـن نـار جهنّـم. يتمنّـى الأطفـال أن تبتلعهـم الأرض عندمـا يشـعرون بالخجـل، لكـن الكبـار لا حيـاء لهـم.

هـل هـذا يجعلهـم أفضـل مـن الأطفـال؟ إن لـم نمنحهـم مـا نملـك، إن رفضنـا أن ندعهـم يدمّرونـا، إن لـم ننـزل إلـى مسـتواهم، سـوف يديـرون لنـا ظهورهـم.

هل يجب أن نمنح هؤلاء القوم كلّ حبّنا؟

6

وفقـاً للمثـل الكازاخـي: «مصـدر النجـاح هـو الوحـدة والتوافـق، وعمـل الخيـر»، إذاً، مـن هـم هـؤلاء القـوم الذين يعيشـون في انسـجام وتوافـق؟ وكيـف يحقِّقـون مثـل هـذا الإنجـاز؟

الـكازاخ يجهلـون هـذا الأمـر. إنهـم يعتقـدون أن الانسـجام يكمـن في امتـلاك قطيـع مـن الماشـية علـى غـرار الآخريـن، وامتـلاك مقـدرات العيـش، مـن غـذاء وكسـاء.

إن تحقَّق ذلك، فما جدوى الثراء والفقر؟

هـل سـيكون العمـل، بجدّيـة، جديـراً بالاهتمـام، للحصـول علـى ثـروة، دون التخلُّـص- بالدرجـة الأولـى- مـن الأصدقـاء والأقـارب؟

لا، الانسـجام والوحـدة يجـب أن يكونـا فـي عقـول النـاس، لا فـي

مشـاعة الثـروة.

مـن الممكـن توحيـد أنـاس متباينيـن مـن حيـث المنشـأ والأخـلاق والديـن، بإغـداق الماشـية عليهـم بسـخاء، ولكـن بلـوغ الوحـدة بثمـن كالماشـية، هـو بدايـة الانحطـاط الأخلاقـي. الأخـوة يجـب أن يعيشـوا فـي سـلام، ليـس بسـبب اتّـكال الواحـد علـى الآخـر، بـل بالتعويـل عليـه، فـي حذقـه وقوتـه وقدرتـه. وإلا فسـوف ينسـون اللـه، ولـن يجـدوا مهنـة لائقـة. سـيدبّرون المكائـد، بعضهـم ضـدّ بعـض، سـوف يغرقـون فـي الاتّهامـات والقـذف، سـوف يخادعـون ويخاتلـون. عندهـا، أيّ نـوع مـن التوافـق يمكـن أن يكـون؟

«الحيـاة مصـدر الرفاهـة والعمـل الخيّـر: «مـاذا نعنـي بالحيـاة هنـا؟ هـل هـي مجـرّد الوجـود المتحقّـق بقـدرة اللـه، والاحتفـاظ بالبـدن والـروح معـاً؟

الكلـب- أيضـاً- مُنِـحَ هـذا الوجـود. ومـن يثمّـن حيـاة كهـذه، ومـن يـرى أن المـوت هـو الكارثـة بعينهـا، فسـوف يصبـح العـدوّ الدائـم للحيـاة. يفـرّ بحياتـه مـن الخصـم، سـوف يُعـرف بالجبـان: المتهـرّب مـن الكَـدّ، سـوف يكـون عديـم النفـع، سـوف يكـون عـدوّاً للخيـر.

لا، المثـل يشـير إلـى نـوع آخـر مـن الحيـاة، هـو جعـل الـروح حَيّـة، والعقـل سـليماً. إذا كان بدنـك حيّـاً وروحـك ميّتـة، فلـن تصلـك

مفـردات الصـواب، لـن تكـون قـادراً علـى كسـب عيشـك مـن عمـل شـريف.

المتسـكّع والمتملّـق والطفيلـي وقحـون وصفيقـون، شـجعان فـي مظاهرهـم، جبنـاء فـي قلوبهـم، يخلـون مـن شـعور الخجـل.

إن كنـت مـن هـذا الطـراز، فـلا تتخيَّـل نفسـك فـي عـداد الأحيـاء. موتـك هـو المبـرِّر الأخلاقـي لحالتـك، أكثـر مـن وجـودك.

7

يرث الطفل، عند ولادته، شيئين أساسيين:

الأول، هـو الغـذاء والمـاء والنـوم مـن أجـل النمـو والقـدرة العقليـة والقـدرة الروحيـة، والآخـر هـو التـوق الشـديد إلـى المعرفـة.

الطفـل يـدرك الأشـياء مـن خـلال الألـوان البرّاقـة، يضعهـا فـي فمـه، يتذوّقهـا، يضغـط بهـا علـى خـدّه. سـيبدأ فـي إصـدار الأصـوات مـن حبـال حنجرتـه، ثـم يكبـر قليـلاً، يسـمع نبـاح الـكلاب، ضجيـج الحيوانـات، ضحـك النـاس وبكاءهـم، سـيبدأ فـي طـرح الأسـئلة عـن المشـاهد التـي أثارتـه: «مـا هـذا؟ ولمـاذا؟ لمـاذا يفعـل كـذا وكـذا؟ «هـذه رغبـة طبيعيـة للـروح: أن تأمـل فـي رؤيـة كل شـيء، وسـماع

كل شـيء، وتعلُّـم كل شـيء.

بـدون المحاولـة لسـبر غـور ألغـاز الدنيـا: الظاهـر منهـا والباطـن، دون البحـث عـن تفسـير الأشـياء، لا يمكـن للمـرء أن يكـون إنسـاناً. وإلا فلـن تختلـف الحيـاة الروحيـة للإنسـان عـن أيّ مخلـوق آخـر.

منـذ البـدء، فصـل اللـه الإنسـان عـن الحيـوان بـأن نفـخ فيـه الـروح. لمـاذا- إذاً- فـي تدرُّجنـا فـي النمـوّ، نكتسـب الحكمـة؟ ألا نبحـث عمّـا يرضـي فضولنـا، الفضـول الـذي نسـيناه فـي الطفولـة، مشـغولين بالغـذاء والنـوم؟ لمـاذا لـم نمـشِ فـي طريـق مَـنْ نَهَـجَ البحـث عـن المعرفـة؟

ينبغـي علينـا أن نناضـل لتوسـيع دائـرة اهتمامنـا، وننمّـي الحكمـة مـن أجـل تغذيـة أرواحنا.يجـب علينـا إدارك الفضيلـة الروحيـة السـامية للجسـد الممنـوح لنـا، وتعلُّـم كيـف نُخضِـع رغباتنـا الدنيويـة إلـى مـا تمليـه عليـه أرواحنـا. لكـن، لا، لقـد كرهنـا ذلـك: نهـذي ونتذمَّـر، لـم نتقـدَّم أبعـد مـن كومـة روث إلـى القريـة المجـاورة، حَكمتنـا الـروح، فقـط، فـي طفولتنـا، وعندمـا نَمَوْنـا وتمكَّنّـا مـن المقـدرة

رفضنـا إملاءاتهـا، وأخضعنـا الـروح للبـدن، وتأمَّلنـا محيطنـا بعيوننـا

لا بعقولنـا:

لـم نؤمـن بدوافـع الـروح، مكتفيـن بالإشـباع الظاهـري، لـم نحـاول كشـف باطـن الأسـرار. بإيماننـا التافـه لـم نخسـر شـيئاً بمثـل هـذا الجهـل. نقـول لمـن يقـدِّم لنـا النصيحـة والمشـورة: «أنـت تعيـش بعقلك، وعقلـي جيّـد لـي، بمـا فيـه الكفايـة»، أو «نفضّـل أن نكـون فقـراء بعقولنـا علـى أن نكـون أغنيـاء بعقـول غيرنـا». نحـن عاجـزون عـن إدراك التفـوُّق والترفُّـع فـي معنـى كلماتهـم.

لا تخفـق شـعلة نـار فـي صدورنـا، ولا أيّ إيمـان فـي أرواحنـا. فبمـاذا نختلـف عـن الحيوانـات- إذاً- إن كنـا نـدرك محيطنـا مـن خـلال عيوننـا فقـط؟ يبـدو أننـا كنّـا أفضـل فـي طفولتنـا، كنّـا بشـراً حينهـا، لكننـا، اليـوم، أسـوأ مـن الوحـوش. الحيـوان لا يعـرف شـيئاً، وليـس لـه هـدف فـي الحيـاة.

نحن لا نعرف شيئاً، لكننا نجادل حتى تبحّ أصواتنا.

في دفاعنا عن بَلادَتنا، نحاول تمرير الجهل كنوع من المعرفة.

8

هل ثمّة من يلتفت إلى نصيحتنا، ويسمع مشورتنا؟

ربّما يكون المرء حاكماً أو قاضياً. إن كان هؤلاء لديهم أدنى رغبة ليكونوا حكماء، وليتعلّموا الأحاسيس؛ هل كانوا ليبحثوا عن المناصب والوظائف؟ هؤلاء يعدّون أنفسهم أذكياء بما فيه الكفاية، ويبحثون عن السلطة ليكونوا معلِّمين وموجِّهين للآخرين؛ كما لو أنهم حقّقوا الكمال، وليس لديهم ما يفعلونه أكثر من أن يعلِّموا الناس.

هل هم من النوع الذي لديه الرغبة، أو فائضاً من الوقت لسماعنا؟

عقولهم مملوءة باهتمامات أخرى: لا يزعجون أنفسهم، لا يثيرون غضب اللصوص، لن يكونوا سبباً في التشويش بين الناس، لن ينزلوا إلى الخسارة، غير أنهم يحقِّقون مصالح شخصية، إلى

ذلك، يجب عليهم مساعدة شخص ما دائماً، أن يساعدوا شخصاً ما للخروج من مشكلة؛ إنهم دائماً مشغولون.....

أهو الغنى؟ هم أثرياء، يفكّرون في يومهم، يعتقدون أنهم بثروتهم يملكون نصف العالم تقريباً، يستطيعون شراء أيّة ثروة حيوانية تنقصهم، رؤيتهم عالية، وطموحهم أعلى، الشرف والضمير والصدق ليست أعزّ من قطعان الدواب لديهم. متأكّدون من أنهم، بامتلاكهم قطعان الدواب، بإمكانهم أن يرشوا العليّ الكبير. قطعانهم هي كل شيء بالنسبة إليهم، وليس الوطن والأرض والناس والدين والأسرة والتعليم. لماذا- إذاً- يصغون إلى نصيحة الناس؟ بعضهم- ربّما- يميلون إلى إعارة سمعهم؛ لكن، ليس لديهم وقت لذلك: يجب عليهم توفير العلف والماء لقطعانهم، وبيعها في الوقت المناسب، حمايتها من اللصوص والذئاب، وقايتها من البرد، والبحث عن الشخص المناسب للقيام بهده الأعمال، بمقابل.

لا، هذا الشخص مشغول جدّاً عن أن يسمع نصيحة أو مشورة. عندما يرى كل هذا سيتباهى ويتفاخر؛ لذلك ليس لديه وقت لأيّ شيء آخر؛ كما اللصوص والأوغاد، من الواضح أنهم لا يريدون السماع على أيّة حال. الفقراء خنوعون كما الخراف، اهتمامهم ينحصر في خبزهم اليومي. ما نفع النصيحة والمشورة والتعليم

عندهـم إذا كان الأغنيـاء منصرفيـن عنهـا؟

«دعنـا وشـأننا، كَلِّـمْ مَـنْ هـم أكثـر ذكاءً منّـا» يقولـون، معتقديـن أن المعرفـة لا تجـدي مـع أنـاس فقـراء، لا يعيـرون اهتمامـاً لأحـد. إن تحصَّـل الفقـراء علـى صنـو مـا عنـد الآخريـن، فلـن يعرفـوا القلـق.

9

أنا- أيضاً- كازاخي، لكن، هل أحبّ الكازاخ، أم لا؟

إن نعـم، فسـوف أستحسـن نمـط حياتهـم، وسـوف أبحـث عـن أي شـيء، مهمـا كان تافهـاً، فـي سـلوكهم، ليبهجنـي أو يواسـيني، عـن سـبب يُكبـر فـي عينـي- علـى الأقـلّ- بعضـاً مـن سـجاياهم، ويبقـي بصيـص الأمـل حيّـاً. وإن لا فهـل أكـف عـن حبهـم، عـن الـكلام معهـم مـن قلبـي، أو أتبـادل المشـورة معهـم، أن أتوقَّـف عـن الاختـلاط بهـم وأشـاركهم شـؤونهم، أتسـاءل:«ماذا يفعـل النـاس؟ مـاذا يجـري؟ «سـأتراجع وأصمـت فـي هـدوء، أو أُدهَـش».

لسـت آمـل فـي تصحيـح مسـارهم أو جلبهم للجـدال ومحاولـة إقناعهم أو إصلاحهـم. حتـى هـذه العاطفـة لا أشـعر بهـا. لكـن، كيـف ذلـك؟ يجـب أن أختـار.

لا أعـدّ نفسـي حيّـاً، لا أعـرف لمـاذا: ربمـا لأننـي مغتـاظ مـن قِبَـل

شعبي، أو مستاءٌ من نفسي، أو لسبب آخر. ظاهرياً، أنا حَيّ، لكني، داخلياً، مَيّت تماماً.

ما الحال الذي عليه أنا؟ ظاهرياً، أنا سريع الغضب، ولا أشعر بغضب! أضحك، وغير قادر على الابتهاج. الكلمات التي أتفوّه بها، والضحك الذي أطلقه، يبدو أنهما ليسا لي! كلّ شيء غريب! في سنوات شبابي لم يخطر في بالي أن ينبذ أيّ شخص ناسه. أحببت الكازاخ من كلّ قلبي، ووثقت بهم. لكن، عندما أردت فهمهم، بشكل أفضل، تلاشى كل أمل لديّ: اكتشفت أنني أفتقر المقدرة على مغادرة موطني وتشكيل قرابة ونسب مع غرباء؛ لهذا السبب ثمّة فراغ في قلبي الآن، لكن، ربّما يكون للأفضل! هذا ما دار في خلدي.

عندما أُحتَضَر، لن أرثي: «واحسرتاه، لم أجرِّب هذا أو ذاك من المُتع...».

لن أعذِّب نفسي بالندم على متاع الدنيا، سوف أجد عزائي في الحياة الآخرة.

10

يتضرّع الناس إلى الله كي يرزقهم أطفالاً، ما حاجة المرء إلى طفل؟

يقولون: ذلك حتى يكون الطفل وريثاً، ويعتني بهم في شيخوختهم، ويصلّي من أجلهم بعد موتهم، أهذا كل شيء؟

حتى يكون وريثاً.. ماذا يعني هذا؟ هل تخشى على ممتلكاتك من الضياع؟ ولكن، لماذا يؤرِّقك شيء سوف تخلّفه وراءك؟

ما الذي ستتركه للناس وأنت آسف عليه؟ ما الكنوز التي كسبتها، وتتحسَّر عليها بهذا القدر؟

الطفل الجيّد بهجة، لكن الطفل السيّئ مسؤولية مرهقة..ما أدراك كيف سيكون الطفل الذي يرزقك الله إيّاه؟ ألا يكفيك الإذلال الذي ابتلعته طوال حياتك؟ أو بعض الآثام التي ارتكبتها؟ لماذا

أنـت متلهّـف لطفـل؟ لِتُرَبّيـه علـى الدنـاءة والإسـاءة، وتميتـه فـي الإذلال نفسـه الـذي ذقتـه؟

تريـد أن يصلّـي ابنـك مـن أجلـك بعـد موتـك.. لكـن، إن صنعـت الخيـر فـي حياتـك، أتـدري مـا الـذي تضيفـه الصلـوات إلـى سـكينة روحـك؟

إذا كنت شرّيراً في حياتك، ما فائدة صلاة ابنك؟

هل سيؤدِّي لك صنيعاً جيّداً عن الذي فشلت فيه سابقاً؟

إن اسـتعطيت مـن أجـل طفـل، لأفـراح الآخـرة؛ هـذا يعنـي أنـك تتمنّـى لـه موتـاً مبكـراً! لكـن، إن أردتـه أمانـاً لـك، لمباهـج حياتـك، فأيـن رأيـت كازاخيـاً يلـد ابنـاً يحنـو علـى أبويـه عندمـا ينمـو ويكبـر، ويحميهمـا مـن الآلام؟: أنـاس كهـؤلاء، وأب مثلـك: هـل ابـن كهـذا مسـتحَقّ؟

تريـد منـه أن يطعمـك ويكسـوَك فـي شـيخوختك؟ أيضـاً، هـذا أمـل بـلا قيمـة!:

أولاً، هـل سـتعيش حتـى مرحلـة الخـرف؟ ثانيـاً، هـل سـيكون ابنـك رحيمـاً كـي يعتنـي بـك فـي شـيخوختك؟ إن كان لديـك قطيـع مـن الماشـية، فسـتجد، دائمـاً، مَـنْ يعتنـي بـك، وإن لـم يكـن، فمـن

يقـوم عليـك؟ وكيـف؟ أضـف إلـى ذلـك: مـا أدراك إن كان ابنـك سـيضاعف ثروتـك التـي كسـبتها بشـقائك وتعبـك، أم أنـه سـيبدّدها؟

حسـناً، لنفـرض أن اللـه اسـتجاب لـك، ومنحـك طفلاً،هـل سـتعلِّمه تعليمـاً جيّـداً؟ لـن تفعـل، سـوف تضاعـف ذنوبـك بذنـوب ابنـك، منـذ مطلـع حياتـه المبكّـرة، سـوف تقـول لـه أكاذيـب، تعـده بهـذا الآن، وذاك فيمـا بعـد، وسـوف تُسَـرّ بخداعـك إيّـاه، عندهـا، مـن هـو الملـوم؟ عندهـا، يصبـح ابنـك كذّابـاً.

سـوف تعلِّمـه لغـة رديئـة وسيشـتم النـاس، وسـتتغاضى عـن آثامـه: «لا تلمسـوا هـذا الولـد العنيـد»!، تسـتحثّ صفاقتـه.

بخصـوص تعليمـه، تختـار لـه (مُـلّا) تدفـع لـه القليـل، ليعلِّمـه القـراءة والكتابـة، فحسـب، وأنـت تعلِّمـه كيـف يكـون مخادعـاً وماكـراً، هـل هـذه هـي التربيـة، ثـم تتوقّـع الرحمـة مـن ابـن كهـذا؟

فـي السـياق نفسـه، يتضـرّع النـاس إلـى اللـه مـن أجـل الثـروة، لمـاذا يحتـاج المـرء إلـى الثـروة؟ أأنـت سـألت اللـه؟ نعـم، أنـت سـألته، وهـو اسـتجاب، غيـر أنـك لـم تكسـب!! منحـك الموهبـة للعمـل ونجحـت، لكـن، هـل اسـتثمرت عملـك فـي الخيـر؟ لا، اللـه منحـك القـوّة كـي تتعلَّـم. العقـل قـادر علـى تمييـز المعرفـة، لكـن، مـن يـدري فـي أي شـيء وظّفتهـا! الـذي يعمـل بجـدّ يسـتفيد مـن فشـله عبـر المثابـرة،

دون كلل، لاستعادة توازنه، لكن، أنت لست بحاجة إلى ذلك! أنت تسأل الله كي تصبح غنيّاً، ومن الخوف الذي في داخلك تغشّ الناس وتستعطي، ما هذا التضرُّع؟ ما هذه الصلاة؟ إنهما، ببساطة، النهب والفقر في ذلك الجزء من الإنسان الذي فَقَد ضميره وكبرياءه، لنفترض أنك اخترت هذا الطريق، وامتلكت قطيعاً من الماشية، حسناً، ألا وظّفته في التعليم؟ إن لم يكن لأجلك، فمن أجل ابنك؛ بدون تعليم، لا الصلوات ولا الصوم ولا الحج، مَرّةً بعد أخرى، تحقِّق ما تصبو إليه.

لم أرَ شخصاً، حتى الآن، تحصَّل على ثروة بدون غش، بأيّ معنى من المعاني، وسخّرها تسخيّراً حسناً.

الكسب الحرام مثل المرض المرهق، تماماً.

لا شيء يعذّب الروح ويحبطها كالاحتفاظ بمثل هذه الثروة، بمجرّد حصوله على الثروة، سيزهو المرء ويتبختر، ليأتي عليها تبديداً، ثم يفخر بثرائه السابق، بعد ذلك، يستعطي، وهو مطاطىء الرأس!.

11

كيف يعيش شعبنا؟ ثمّة طريقان: الأوّل عن طريق السرقة؛ يأمل اللص بأن يثري بما سرق، و«البيّ» يبحث في كيف يزيد من قطعان دوابه، بأن يستردّ ما سُرق منه، إلى جانب أشياء أخرى. الذين في السلطة سوف يسلبون الاثنين، «البيّ» واللص: بوعدهم للأوّل بالمساعدة لحماية قطعانه، وللثاني بالتملّص من العدالة. أنت، الرجل العادي، سوف تُبلِّغ السلطات عن اللص، وفي الوقت نفسه تساعده وتحرّضه على بيع المسروق بثمن بخس.

والطريق الآخر: الناس العاديون يقنعون بالخداع، باللجوء إلى الحيلة بصيغة أخرى، ليس لديهم حلم. افعل هذا وذاك، وسوف تكون غنياً ومشهوراً، سوف تكون محترماً، ويتعذّر إيذاؤك، وسوف يهابك خصومك. انشر الشرّ، والغضب الشديد، واضرب الناس، بعضهم ببعض، بأمل الغشّ والخداع تكون في خدمة

شخص ما لتكسب، وتنتفع من ورائه.

هذه طريقة حياتهم: النبالة في مساعدة «البيّ»، وتعرية اللّص، والرجل الفقير يقوم بتملُّق الأقوياء وتوريطهم في النزاعات، يقف الآن مع شخص، وغداً مع زمرة أخرى، ويبيع، بسعر، هو الأرخص، شرفه وزوجته وأطفاله وأقاربه وجيرانه وأصدقاءه.

إن انتفى اللصوص والاحتيال سوف يفكِّر شعبنا بشكل جيّد، سوف يكونون سعداء بالعمل الشريف والبحث عن الخير والحكمة إن كان «البيّ» يريد أن يعملوا في أملاكه، وسيجني الفقير، ويكسب رزقه دون فقدانه الأمل أو الإيمان.

عموم الناس يتورّطون في أعمال قذرة، بسبب احتقار بعضهم للبعض الآخر، القوي الذي يجتثّ هذا الشر، سوف يكون له الشرف والنخب ونقاء الضمير والتمتُّع بالسلوان!

ربّما تكون القوّة قادرة على ترويض اللّص، لكن: ماذا عن «البيّ» الذي يتآمر مع الطمّاع والمخادع والنهّاب؟ من يجعله في طريق الصواب؟ وكيف؟

12

عندما يعلِّم أحد ما كلمات الله، بغضّ النظر عمّا إذا كان ذلك بطريقة حسنة أم لا، سرعان ما نلذعه بألسنتنا محرّمين عليه عظته، دون أن نفسّر لماذا نوبِّخه، ربّما يفتقر إلى التنوير الكافي! لكن، دعه يعظ. على كلٍ، يجب على هذا الشخص أن يتذكَّر شرطين أساسيين: الأول: يجب أن يكون متيقّناً من إيمانه، والثاني: يجب عليه ألّا يرضى بما يعرف، بل عليه أن يحسّن عقله باستمرار. الذي يهجر التعليم يحرم نفسه من بركة الله، سوف تبحث عن أية فائدة عقيمة من تعليمه. في الحقيقة: ما فائدة وضعه العمامة على رأسه، وصومه بصرامة، وتظاهره بأنه يؤدّي صلواته بتقوى؟ لكنك لا تعرف إن كانت صلاته في المكان الصحيح أم لا.

الشخص المتهاون، الذي لا يكون صارماً في حياته، ولا يبادر إلى الحنوّ والشفقة، لا يُعَدّ مؤمناً؛ فدون ضبط الذات والاستقامة، لا يمكن للمرء أن يحتفظ بالإيمان في روحه.

13

الإيمان، الإيمان الذي لا يتزعزع في قلب المرء. كلّ قدرة الله تعالى، في جوهر الوجود، أن نتعلّم من الوحي الذي نزل على رسوله، عليه الصلاة والسلام.

ثمّة طريقان للإيمان: البعض يكون مسلماً، هكذا، ببساطة، مدركاً الاحتياج الحيوي للحقيقة، ويقوّي إيمانه من خلال الحجج الصائبة. نسمّي هذا (الإيمان اليقيني). وآخرون، يؤمنون من خلال تكوين الحكمة من الكتب ومن كلمات (الملّا). مثل هؤلاء الناس يحتاجون إلى تكريس خاصّ لهدفهم، وهو الإيمان والقوّة الروحية من أجل الصمود أمام آلاف الإغواءات. ولا يرتعش أبداً في مواجهة الموت؛ هذا هو (الإيمان التقليدي).

للحفاظ على الإيمان في عمق الذات، يجب على المرء أن يتحلّى بقلب جريء، راسخ، ووطيد الثقة في قدراته.

ولكـن، مـاذا عـن أولئـك الذيـن يفتقـرون إلـى المعرفـة ليكونـوا فـي ركـب الإيمـان اليقينـي، أو أولئـك الذيـن ليـس لديهـم الإيمـان الراسـخ، الذيـن يستسـلمون، بسـهولة، للإغـواءات ويتملّقـون، الذيـن، مـن أجـل كسـب رخيـص، يقولـون: الأسـود أبيـض، والأبيـض أسـود، الذيـن يحنثـون فـي قسَـمَهم؛ لتمريـر الأكاذيـب علـى أنهـا حقيقـة؟ ألا يمكـن حسـبانهم مؤمنيـن تقليدييـن؟ ليحفظنـا اللـه مـن مثـل هـؤلاء! يجـب علـى كلٍّ منّـا أن يتذكَّـر أنـه ليـس ثمّـة إيمـان أخـر يحفظنـا. لنـدع المرتدّيـن فـي حـال مَـنْ لا يحصـي نعمـة اللـه المطلقـة: لا يسـتحقّون مغفـرة اللـه، ولا شـفاعة رسـوله. ملعـون مـن يصـدق أمثلـة كاذبـة، مثـل: «حافّـة السـيف أحـدّ مـن القسَـم»، و«يغفـر اللـه كلّ الخطايـا».

14

هل يملك المرء عزيزاً أكثر من قلبه؟ الناس تُعزّ من يُنعَت بأنه يملك قلباً شهماً، وتحترمه، لكن الناس لديهم فكرة سيّئة عن مناقب أخرى لفؤاد الإنسان: الرحمة، والعطف، والقدرة على معاملة الغريب كأخ عزيز، والتمنّي له ما يتمنّاه المرء لنفسه، كل هذا يأتي بإيعاز من القلب، وبالمثل، يأتي الحبّ من القلب.

اللسان الذي يطيع القلب لا يكذب.المنافق- فقط- ينسى قلبه، مع ذلك فإن هؤلاء «أصحاب القلوب الشهمة»، غالباً، يثبتون أنهم غير جديرين بهذا الإطراء، ما لم يكرِّسوا شرفهم وكياستهم في النفور من الشرّ، لقيادة الأرواح التائهة، عبر طريق طويل وضيِّق، وليس في اتّباع الحشود الخسيسة والبائسة، وما لم يقفوا للدفاع عن قضية عادلة في وجه الصعوبات ومساندة الحقيقة، طالما بمقدورهم ذلك؛ عندئذ، ستكون القلوب التي في صدورهم، والتي من أجلها يُقدَّم لهم الاحترام، قلوبَ ذئاب،

وليست قلوب بشر.

في الواقع، الكازاخ، هم- أيضاً- أطفال الإنسانية. العديد من الكازاخ يضلّوه طريق الحقّ. ليس بسبب عجز العقل، بل لضعف في العزيمة، وتعطيل القلب عن قبول النصيحة والمشورة. لا أصدّق من يزعم بأنه اضطرّ لعمل الشرّ بسبب الجهل.لا، عنده ما يكفي من المعرفة، لكن ضعف الإرادة المخزي لعمل الخير، والكسل هما السبب في التجاهل. قد نخطئ مَرّةً، لكن القليلين منا من يملكون الشجاعة الكافية لتصحيح خطئهم. هؤلاء الذين نثني عليهم، بوصفهم شجعان وفوارس، أذكياء وبواسل، غالباً ما يضع أحدهم الآخر في عمل خسيس، ونتيجة للتقليد الأعمى، من قِبَل بعضهم للبعض الآخر، يسبّبون المحن، ثم يثبون مرحاً.

إذا انغمس المرء في الشرّ، وأطلق العنان للتبجُّح فلن يتوقّف ليراجع نفسه ويهذّبها، ولن يحاول تطهيرها أمام الله أو أمام ضميره. كيف ننعت هذا الإنسان بـ(البَطَل) إذا لم يتساءل المرء إن كان سيُدعى إنساناً؟.

15

في رأيي، ثمّة فرق جوهري بين الذكيّ والغبيّ.

في هذه الحياة، لا يمكن للمرء أن يتجاهل ما يجذبه من حوله ويثيره، ويفتنه. تلك الأيام من التساؤلات، والعواطف، والاهتمامات، تبقى في ذاكرة المرء بمثابة المرحلة المضيئة من حياته.

الإنسان الواعي يهتمّ بالمسائل الجديرة بالجدّيّة، يلاحق أهدافه بثبات، وأيضاً، ذاكرته عن ماضيه، المفعمة بالنضال، سوف تكون مُستمعاً إليها من الآخرين، بكل الدفء.

مثل هذا الشخص لن يضلّ، وأيضاً، لن يأسف على حياته، على امتدادها.

الإنسان التافه ينفق وقته في اللاجدوى، ويشرع في السخف

والضآلة. عندما يعود إلى رشده يدرك أن أفضل سنوات عمره ذهبت، سريعاً، هباءً منثوراً، وهنا يكون الندم متأخّراً. في أيام شبابه يتصرف وكأنه لن يشيخ، ولا يشكّ، أبداً، في أن أيام البهجة والافتتان، سوف يأتيه يوم، لا يجد منها لحظة. بعدها، وفي لحظة قريبة حاسمة، يخسر قوّته السابقة ورشاقته، ويصبح عديم النفع لأيّ شيء.

ومع آخرين، يكمن الإغواء عندهم في التحمُّس الروحي، معتقدين أن النجاح تحقَّق، أو هو بين أيديهم، هذا الأمر يُسْكر حواسهم، ويجعل منهم حمقى. بمثل هذه النجاحات تلبِّد الغيوم عقولهم، وتورِّطهم في التخبُّط وارتكاب الأخطاء. إنسان مثل هذا يجذب الانتباه، حتى ولو كان ذلك ضدّ إرادته، يصبح موضوعاً للقيل والقال، وهدفاً للسخرية.

الناس العقلاء يحتفظون بتوازنهم، حتى في اللحظات الحرجة لن يفقدوا رشدهم، بل يتحلّون بضبط النفس، ولا يكشفون مشاعرهم للآخرين.

الأحمق مثل فارس، يعدو ممتطياً جواداً من دون لجام: يرفع عينه إلى السماء كما لو كان مجنوناً، ليخسر السباق في نوبة الحمّى هذه، يجمح، ولا يدري أن حافّة عباءته لا تغطّي مؤخِّرة الجواد حتى... هذا ما لاحظته.

إذا أردت أن تكـون فـي عـداد الأذكيـاء الفَطِنيـن، اسـأل نفسـك، مَـرّةً فـي اليـوم، مَـرّةً فـي الأسـبوع، أو- علـى الأقـلّ- مَـرّةً فـي الشـهر: «كيـف أعيـش؟ هـل طبّقـتُ مـا تعلّمتـه مـن أجـل حياتـي أو ليـوم حسـابي؟ هـل سـأبتلع تفـل المـرارة، بـكل أسـف، فـي وقـت لاحـق؟».

أو- ربّما- لا تعرف، أو تتذكَّر كيف عشت، ولماذا!.

16

الكازاخـي لا يهتـمّ إن كانـت صلاتـه ترضـي اللـه أم لا! إنـه يفعـل مـا يفعلـه الآخـرون: يقـف، ويركـع، ويسـجد فـي تضـرُّع. إنـه يعامـل اللـه كمـا لـو كان التاجـرَ الـذي جـاء لتحصيـل الديـون: «هـذا كلّ مـا لديّ،خـذه إن شـئت، وإن لـم تشـأ لا تسـألني عـن قطيـع المواشـي، ومـن أيـن أتـى». الكازاخـي لـن يجهـد نفسـه فـي عنـاء المعرفـة، تطهيـر عقيدتـه وإيمانـه: «حسـناً، هـذا كل مـا أعرفـه، لـم ينصحنـي أحـد طـوال عمـري، لذلـك، يكفـي النـاس لومـاً لـي عـن تركـي للصـلاة. إن كان كلامـي أخـرق، فهـذا لا يهـمّ، علـى أيّـة حـال».

أتساءل: هل يختلف هذا اللسان عن الآخرين؟

17

تجـادل، ذات مَـرّة، العقـل والإرادة والقلب،عـن أيّهـم أكثـر أهمّيّـة، فطلبـوا مـن المعرفـة حسـم الخـلاف بينهـم. قالـت الإرادة: «أيّتهـا المعرفـة، يجـب أن تعرفـي أنـه ليـس ثمّـة شـيء يحقِّـق الكمـال مـن دونـي. كـي يعـرف الإنسـان نفسـه، عليـه أن يواظـب علـى التعليـم، وهـذا مسـتحيل مـن دونـي، بمسـاعدتي- فقـط- يمكـن للمـرء أن يخـدم العلـيّ الكبيـر دون كلـل، ويكسـب الثـروة والمهـارة والاحتـرام والمهنـة الناجحـة:

ألست أنا من يحمي الناس من الهوى التافه، ويكبح جماحهم؟

ألست أنا من يحذِّرهم من الخطيئة ومن الحسد ومن الإغواء؟

ألسـت أنـا مـن يردّهـم عـن غيّهـم، فـي اللحظـة الأخيـرة، عندمـا يكونـون علـى شـفا الهاويـة؟ كيـف لهذيـن أن يتجـادلا معـي؟

قال العقل: «أنا- فقط- من يعرف كُنه الكلمات: ما يفيد منها، وما يؤلم، سواء في هذه الحياة أو في الحياة الأخرى.

أنا من يفهم لسانك، من دوني لا أحد يقدر على تجنُّب الشرّ، وأن يكسب المعرفة، أو يفيد نفسه. لماذا يجادلني هؤلاء؟ من دوني ليس لهما شأن».

قال القلب: «أنا سيِّد بدن الإنسان. أنا مصدر دمه، والروح تكمن عندي. لا يمكن تخيُّل الحياة من دوني. أنا من يحرم هؤلاء المضِّجعين على الأسِرّة الوثيرة النوم، أنا مَنْ يجعلهم يتقلّبون، وهم يفكرون بالمحرومين من سقف يحميهم، وهم جوعى وبردى. أنا من يدعو الصغير لاحترام الكبير، ويتسامح مع من هو أصغر منه. لكن الناس لا يسعون لإبقائي طاهراً، لذلك تراهم يقاسون ويعانون. عندما أكون نقيّاً لا أميّز بين الناس. أُكبر الفضيلة، وأثور ضدّ الحقد والعنف.

احترام الذات، والضمير، والرحمة، والعطف، كل هذا ينبع مني. ما قيمة هذين من دوني؟ كيف يجرؤا على مجادلتي؟

بعد الاستماع إلى كلٍّ من الثلاثة، أجابت المعرفة:

«ما قلتِه، أيّتها الإرادة، صحيح، ولديك مزايا أخرى لم تذكريها. لا يمكن إنجاز شيء دون مشاركتك، مع ذلك، أنت تخفين

وحشيةً تعادل قوّتك. أنت عازمة على خدمة الخير، ولكنك- بالعزم نفسه- تخدمين الشرّ. هذا هو خطؤك.

«وأنت- أيضاً- على حقّ، أيّها العقل، لا يمكن للمرء القيام بشيء من دونك. بفضلك، عرف الناس الخالق، وانخرطوا في أسرار الدنيا والآخرة. لكن هذه ليست كلّ حدودك. المكر والشر يأتيان -أيضاً- منك. الجيّدون من الناس وأردؤهم، وجودهم يعتمد عليك، وأنت تخدم الطرفين، بالحرص نفسه.

إذاً، خطيئتك تكمن هنا.

«مهمّتي التوفيق بينكما، حبّذا لو كان القلب وسيطاً:

أمامك مسارات عديدة، أيّها العقل، لكن القلب لا يمكنه سلوكها جميعاً. سيبتهج إن باشرت مهامك الأخلاقية بين الناس، وسيُسَرّ بمساعدتك في عملك، لكنه لن يتبعك إن حِكْتَ المكائد وفعلَ الشر، سوف يدبر عنك مشمئزّاً».

«أنت، أيّتها الإرادة، لديك وفرة من الطاقة والشجاعة، لكنك مقيَّدة بالقلب. لن يقف في طريقك لأعمال النية الحسنة، لكنه سوف يقيّد يدك وقدمك، إن كان هدفك الضعف والشرّ.

«يجب التكاتف مع القلب، وإطاعته في كلّ شيء!».

إذا كنتما - أنتما الاثنان- تعيشان بسلام، داخل المرء، فإن غبار قدميه سيفتح أعين العميان، وإن لم تصلا إلى اتّفاق، فإنني أعطي الأفضلية للقلب؛ لأنه هديّة الإنسانية قبل كلّ شيء، ومنه يحكم علينا العليّ القدير. إنه مدوَّن هنا في الكتاب». هذا ما قالته المعرفة.

18

يجب على المرء أن يكون محتشماً في لباسه، وأن يكون نظيفاً وأنيقاً. فقط، شديدو التأنُّق يهتمّون أكثر من غيرهم بزيّهم وبمظهرهم. إنهم يتباهون بطرق عديدة، منهم من يولي اهتماماً كبيراً بوجهه، يصقل شاربه ولحيته، يدلّل بدنه، ويمشي مختالاً، يرفع حاجبه في تراخٍ، ينقر بأصابعه، أو يستعرض ملابسه واضعاً يديه على خاصرتيه وثَمة آخر يتعمّد إهمال أناقته، ويوحي- بشكل مرتجل- بأنه «رجل بسيط»، ليلمّح إلى حصانه العربي أو إلى ثيابه غالية الثمن: «آه، ليس ثمّة شيء على وجه الخصوص !». إنه يلفت النظر إلى حسن سلوكه، مثيراً الحسد بين أقرانه، طالباً الإجلال ممّن أدنى منه، كما لو أنه في قمّة نقائه وترفه، حتى يقال عنه: «ليس لديه ما يشكو منه، وهو الذي يملك جواداً وملابس مثل هذه !»، لكنّ هذا أمر سخيف ومخزٍ.

يجب على المرء أن لا يتّصف بهذا الهراء، وإلا سيجد صعوبة في

عودتـه إلى رشـده.

فـي المفـردة «كيربـز» (شـديد التأنـق)، نـرى العلاقـة بيـن المفردتين: كيـر (مغـرور)، وكيـردن (متغطـرس)؛ هنـا، ثمّـة شـيء يجـب تحذيـر النـاس منـه، إنـه المعـادل للرذيلـة، فـي صنوفهـا:

علـى المـرء أن يتميَّـز بالعقـل، والمعرفـة، والعزيمـة، والضميـر، والخلـق.

فقط، الأحمق هو مَنْ يظنّ أنه يمكنه التميُّز بمعانٍ أخرى.

19

لا يولد الطفل وهو خالٍ من العقل. بالاستماع والمشاهدة وبتفحُّص الأشياء عن طريق اللمس والتذوق، يتعلّم ما هو الجيّد، وما هو السيّئ.كلّما شاهد وسمع،عرف. يمكن للمرء أن يتعلَّم الصفة الجيِّدة من خلال الاستماع إلى الحكماء. هبة العقل ليست كافية. بالتعليم وحده، وبالحفظ- عن ظهر قلب- كيفية تجنُّب الرذائل، يمكن للمرء أن ينمو في صيغة إنسان.

لكن، إن استمع المرء إلى الحكمة بتعصُّب مفرط، أو- على العكس- باهتمام قليل، دون أن يسأل عن توضيح، في محاولة للوصول إلى قلب الموضوع أو لاستخلاص استنتاجات، حتى ولو كان يشعر بالحكمة والعدالة في مثل هذه النصائح، فما فائدة هذا الاستماع؟

ما جدوى الحديث مع شخص لا يعرف قيمة الكلمة؟ أو، كما قال أحد الحكماء: «من الأفضل ضرب الخنزير بشدّة كي يلاحظك».

20

جميعنا يعرف أنه ليس لأحد أن يفرض القضاء والقدر. الشعور بالشبع صفة إنسانية، لا تأتي باختيار المرء، وإنما بالقضاء والقدر فقط.

من خَبِر الشبع لا يقدر التخلّي عنه، حتى لو بذلت قصارى جهدك، سيكون مصدر اهتمامك ونصب عينيك. ليس ثمّة هذا القليل أو هذا الكثير ليشبع المرء من الطعام واللهو والأزياء والولائم والحفلات والرغبة في ابتزاز الرجال والنساء. عاجلاً أم آجلاً، تكتشف تفاهة كل تلك المباهج وفسادها، حينها يصبح المرء متحرّراً من الوهم وغير مبالٍ. مثل كلّ شيء آخر في الدنيا، حياة المرء وقدره في تغيُّر، ليس ثمة كائن على وجه الأرض يظلّ ساكناً، لذا: من أين يأتي شعور الاستقرار؟

الشبع هو نوع من القدر، حتى لأولئك الناس الباحثين عن

الكمـال فـي الحيـاة، الذيـن يعرفـون قيمـة الأشـياء، الذيـن هم شـديدو الحساسـية، ويدركـون تفاهـة الوجـود الإنسـاني.

من يدرك الطبيعة الزائلة لمتا ع الدنيا، يسأم الحياة.

بالنسبة إليّ، أعتقد أن السعيد هو الساذج وخَلِيُّ البال.

21

من الصعب تجنُّب الغرور والرضا الذاتي، ولو بدرجة صغيرة.

لقد حددت صفتين: الفخر، والتباهي.

الرجل الفخور له تقدير عالٍ في قيمته، إنه يبذل قصارى جهده لضمان عدم اعتباره بمثابة الجهول الذي لا يمكن الاعتماد عليه في وعوده، أو المتعجرف الوقح والكاذب الحاقد والعيّاب والمحتال. وهو على بَيِّنة من انحطاط هذه الرذائل، وطموحه أن يكون فوق تلك المشائن.

هذه الصفات هي التي يتميَّز بها الرجل ذو الضمير الصافي. صائب الفكر، سامي المبادئ. إنه يبغض سماع الناس تتغنّى بإطرائه، بيد أنه لا يسمح لأحد بأن يلطِّخ سمعته.

من جهة أخرى، المتبجِّح يبذل قصارى جهده في الحديث عن

كل شيء، ومتى ما سنحت الفرصة، ليوحي للجميع أنه بطل، وغني، ومن سلالة نبيلة! لكن، يفوته الانتباه إلى أن الناس تقول عنه أشياء أخرى، لا يرغب في سماعها. لكن، للحقيقة، رداءة السمعة لا تضايقه. ثمة ثلاثة أنماط للمتبجِّح:

الأول هو التوّاق للشهرة، في الخارج، بين الغرباء. وهذا إنسان جهول، لكنه يحتفظ بفضيلة إنسانية.

الثاني، هو الذي يريد الشهرة داخل قبيلته. وهذا النوع جهول تماماً، وتندر فيه الإنسانية.

الثالث، هو الذي يسعى للفت الأنظار في أسرته أو في مسقط رأسه، لأنه ليس ثمة دخيل يأبه بتفاخره. هذا النوع هو الأكثر جهلاً، ولا يحمل صفات الإنسان.

الذي يناضل من أجل الثناء من قِبَل الغرباء يسعى إلى تمييز نفسه بين أبناء قبيلته. والذي يرغب في الإشادة به من قبيلته يسعى للاستحسان من أقاربه وأعزائه. والذي يحصل على الثناء من عائلته هو على يقين بأن هذا الإطراء سيحلق به في السماوات.

22

أتساءل: من يمكنني أن أحبّ، أو أحترم، من كازاخ اليوم؟

أودّ احترام «البيّ»، لكن، ليس ثمة «بيات» حقيقيون، هذه الأيام، حتى لو وُجِد أحد، فهو ليس سيِّد نفسه أو ثروته. إنه في عداوة مريرة مع أحد ما، وكتدبير وقائي، سيعهد بقطيع ماشيته إلى الآخرين، لينتهي به المطاف مديناً بالفضل للمئات من الناس. يعتقد- لبلاهته- أنه أظهر سماحة النفس باستجابته لطلبات الوضيعين من حوله، لكنه في الواقع، أصبح خاضعاً لهم.

هل ننعته بالشهم، أم بالرحيم؟ في مسقط رأسه، هو في جدال مستمرّ مع ناسه، يبدِّد ثروته، ويتملّق المِنّة من أتفه الرجال. عندما يكون البيات في حالة خصام، يظهر الأوغاد من كلِّ نوع ليرعبوهم، ويعيشوا على نفقتهم.

أودّ احترام الميرزا[1]، لكن، لن تجد شهماً واحداً بمعنى الكلمة، منهم، هذه الأيام، كما أولئك الذين يبدِّدون ثروتهم الحيوانية يمنةً ويسرة، كما أنهم هؤلاء كالكلاب التائهة. بعضهم يحتفظ بقطعانه، في محاولة لكسب ميزة ما، في حين يتماهى معه آخر، على مضض، وغالباً يفعلون ذلك لكسب السمعة؛ إنهم يركضون في كل اتّجاه كمن نثَر ملحاً على ظهورهم، ومع ذلك يصبحون، في أحيان كثيرة، فريسة للأشرار.

أودّ احترام القاضي المحلّي، والمتصرِّف، لكن، في سهبنا، ليس ثمة عدالة دينية أو إنسانية. السلطة تُشترى بالخنوع أو بالمال الذي لا يكلِّف كثيراً. من الممكن أن أحترم الرجل الحصيف الثابث، لكن، أرى أن جميعنا لهم القدرة على عمل الشر، في حين ليس ثمة من هو على استعداد لعمل الخير.

أتمنّى أن أجد رجلاً حكيماً فطناً كي أحترمه. ليس ثمة من هو على استعداد ليستخدم فطنته لخدمة روح الضمير أو العدالة، في حين يتهافت الجميع من أجل الخداع والغدر.

ربما أحترم متسوِّلاً واهناً، لكنه ليس خالياً من خطيئة. ليس مهمّاً أنه لا يقدر على تسلُّق جمل رابض، ولو توفّرت له القدرة، فسوف يجد البراعة في سرقة بعض الأشياء.

1- - ميرزا: نبيل، منوط بالسلطة أو القوة.

مـن الـذي تبقّـى إذاً؟ الماكـرون والجشـعون؟ لـن يتوقّـف هـؤلاء حتـى يدمّـروا الآخـر تدميـراً كامـلاً.

إذاً، مـن نحـبّ، وندعـو لـه؟ أهـم القضـاة الدنيئـون، والمتصرّفـون الذيـن لا يمكـن تبجيلهـم؟

إنهـم مـا يزالـون علـى وفـاق مـع «البـيّ» بفضيلـة حلمـه، يعيشـون بالقـول: «إذا أردت النجـاح تجنّـب النزاعـات». هـؤلاء يتعرّضـون للاسـتياء مـن الجميـع. ضـع فـي حسـابك- أيضـاً- أن بإمكانهـم تبديـد نصـف ثروتهـم وجهودهـم، فـي مـا لا يفيـد، لحمايـة اللصـوص والهمـج.

ليس ثمة ما يمكن فعله: على من يجب أن نشفق؟ ولمن ندعو؟

كما هو الحال: لم أجد أحداً، كذلك!.

23

ثمة بهجة وعزاء، بمثابة اللعنة، يخيّمان على الكازاخ.

الواحد منهم يبتهج عندما يقابل رجلاً معلولاً، أو يرى عملاً شائناً، يقول: «اللهم، احمنا من هذا» عادّاً نفسه رجلاً فاضلاً، مقارنةً بالحالة التي واجهها آخرون أنقياء كما الرُّضع. أم: هل وُعِد من لم يكن معلولاً لو وُجد من هو أكثر منه جهلاً أو فساداً؟ لكن، هل ستكون أحسن إذا قورنت بالنذل؟ الخير يُعلّمه الخيّرون. في الأصل، يجب عليك أن تدرك، وتسأل نفسك: كم جواداً سريعاً، هناك، في الوراء؟ بل كم عددهم في الأمام؟

إن كان هناك خمسة أو عشرة من الجياد العربية وراء الخاسر، هل ذلك سيجعله أكثر سعادة؟.

الآن، بِمَ يجد الكازاخ العزاء؟ أحدهم يقول: «لسنا وحدنا من يودّ ذلك، كل الناس تحبّذ ذلك. الأفضل ألّا تغرِّد خارج السرب.

الوليمـة الجماعيـة هـي أفضـل وليمـة». لكـن، هـل اللـه دعـاه كـي يكـون وسـط الجمـوع؟ هـل العلـيّ القديـر لا يقيِّـد الحشـود؟ هـل يحـرز الجميـع المعرفـة العاليـة؟ أم هـي مقصـورة علـى أنـاس مختاريـن؟ هـل كل النـاس متعادلـون فـي هبـة العبقريـة؟ أم واحـد، فقـط، مـن ألـف؟ مـن قـال أن ليـس فـي اسـتطاعة الجميـع أن يكونـوا متواضعيـن؟ إذا أصيـب النـاس بـداء، أليـس مـن الأفضـل أن يبقـى نصفهـم بحالـة جيّـدة؟ ألا نحتـاج إلـى شـخص يتميّـز بمعرفـة واسـعة علـى امتـداد الأرض، فـي حيـن يفتقـر إليهـا الآلاف، ويتخبطـون فـي الضلالـة؟ أيّهمـا أفضـل: أن تمـوت كل جيـاد الرحّالـة جوعـاً، مـرّة واحـدة، أم أن يمـوت نصفهـا؟ أيّهمـا أفضـل أن يعانـي النـاس مـن نفـوق الماشـية نتيجـة المجاعـة التـي تحـلّ بهـا، أم أن ينجـو نصفهـا؟ مـا السـلوى لغبـيّ يحيـط بـه الآلاف مـن البُلَهـاء؟ طالـب يـد العـروس ينـال مـراده إن أعلمهـا بـأن جـلّ عائلتـه يعانـون مـن سـوء التنفُّـس. سـتكون خطيبتـه لـه عونـاً عندمـا تعـرف أنـه ليـس وحـده مـن يعانـي.

24

عدد سكّان العالم أكثر من ألفَيْ مليون، الآن[1].

نشكِّل، نحن- الكازاخ- أكثر من مليونين منهم.

الكازاخ ليسوا كغيرهم من البشر، الذين يرغبون في الرخاء، ويبحثون عن المعرفة في إعجابهم بالفن، في إظهارهم للصداقة والمقدرة، في التباهي أو في العداوة.

يقاتل بعضنا الآخر، يدمِّر بعضنا بعضاً، ويتجسَّس بعضنا على بعض، قبل أن يجد الجار الوقت للانتباه.

ثمّة مدن في العالم، يفوق عدد سكّانها ثلاثة ملايين. ثمة من سافر حول العالم ثلاث مرات.

هل يجب أن نستمرّ في حياة كهذه: يتربّص أحدنا بالأخر؟ هل

1- - الزمن، هنا هو القرن التاسع عشر.

سنبقى أكثر الناس بخلاً على وجه الأرض؟ أم سنرى أياماً سعيدة، عندما تنسى الناس السرقة والخداع والاغتياب والعداوة، ونتوجّه بأدمغتنا صوب المعرفة والعمل، عندما نتعلم كيف نكسب الثروة بالطرق الصحيحة؟ أشكّ في مجيء مثل تلك الأيام. في هذه الأيام يتوق مئتان من الناس إلى مئة من رؤوس الماشية، كانوا في سلام، قبل أن يدِّمر بعضهم بعضاً، في هذا التدافع للكسب.

25

سيكون مفيداً إن تحصّل أطفال الكازاخ على التعليم. فليشرعوا في ذلك. سيكون كافياً إن تعلّموا الحروف التركية، طالما أننا في بلد غير متديِّن. قبل أن نرسل أبناءنا إلى المدرسة يجب أن نكسب الثروة، إلى جانب أنه يجب عليهم تعلُّم الفارسية، والعربية. لكن، هل باستطاعة هؤلاء الجوعى أن يحتفظوا بعقل صافٍ، ويهتمّوا بالاحترام، ويظهروا الاجتهاد في التعليم؟ العوز والشجار بين القبائل والعائلات ينتج نهج اللصوصية، والعنف، والجشع. إن كان لديك قطيع من الماشية فأنت ممتلئ البطن. التوق إلى المعرفة وإتقان حرفة تأتي لاحقاً؛ عندها يبدأ الناس في التفكير في تعليم أبنائهم شيئاً ما.

على المرء أن يتعلّم الروسية: قراءةً وكتابةً. اللغة الروسية هي المفتاح للغنى الروحي والمعرفة، للفنون، وكنوز أخرى. إذا تفادينا العيوب عندهم، والتفتنا لتبنّي إنجازاتهم، يجب أن نتعلَّم لغتهم،

ونـدرس ثقافتهـم وعلومهـم. أصبـح الـروس، بتعلّـم لغـات أجنبيـة واسـتيعاب ثقافـة العالـم، علـى ماهـم عليـه. الـروس فتحـوا عيوننـا علـى العالـم. بدراسـة لغـات الأمـم الأخـرى وثقافاتهـا، يصبـح المـرء متسـاوياً مـع الآخريـن، ولا ينزلـق إلـى طلبـات وضيعـة.

التنويـر مفيـد للديـن أيضـاً. مـن يعـشْ حيـاة التزلّـف والتذلّـل مـن السـهل عليـه بيـع أمّـه وأبيـه. سـيبيع أسـرته، يبيـع إيمانـه وضميـره قصد التنـازل أمـام مـن هـو أرفـع مقامـاً منـه. البعـض يذعـن، وينحنـي غيـر آبـه بالعـار الـذي يخلّفـه وراءه. كل ذلـك مـن أجـل الظفـر بابتسـامة إطـراء مـن بعـض الموظّفيـن.

تعلُّـم الثقافـة واللغـة الروسـيتَيْن هـو المفتـاح لـلإرث العالمـي؛ مـن يمتلـك هـذا المفتـاح سيكسـب حيـاة مديـدة، دون بـذل جهـد كبيـر.

بعـض الـكازاخ الذيـن يعلِّمـون أطفالهـم فـي مـدارس روسـية، يفعلـون ذلـك للتباهـي أمـام أقاربهـم، عنـد الاختـلاف، بـأن أبناءهـم يعرفـون القـراءة والكتابـة. يجـب ألّا يكـون هـذا هـو دافعـك للتباهـي. يجـب تعليـم طفلـك كـي يكسـب رزقـه بعمـل ذي منفعـة، ودَعِ الآخريـن يحـذون حـذوك، بعدهـا، لـن نبقـى تحـت تحكُّـم طـرق النبـلاء الـروس؛ لأنـه ليـس لديهـم قانـون يُطَبَّـق فـي تسـاوي الجميـع. يجـب أن نعلّـم أنفسـنا مـا تعلَّمَـه الآخـرون فـي التسـاوي، ولنكـن الواقـي لشـعبنا، والدعامـة لـه. حتـى الآن، ليـس ثمّـة حالـة فرديـة ظاهـرة بيـن

اليافعين لمن قد تلقى تعليماً روسيّاً؛ ذلك لأن آباءهم وأقاربهم يفسدونهم، ويقودونهم إلى الضلال. ومع ذلك، يظلّون أفضل حالاً ممن لم يتلقّوا تعليماً على الإطلاق.

وإنه لمن المؤسف أن كلّ ما تعلّموه لا يعدو أبعد من ترجمة كلمات الآخرين.

الأثرياء، نادراً ما يرسلون أطفالهم إلى للمدرسة: يفضّلون بدل ذلك إرسال الأطفال الأشدّ فقراً، ليُعاقَبوا ويُذَلّوا على أيدي المعلِّمين الروس. لكن، ما الذي يتعلّمه هؤلاء التعساء، هناك؟

عند الشجار بين الأقارب، يصرخ أحدهم، أكثر من معاناته بسبب تحقيرك له: سأرسل ولدي إلى التجنيد، وليَطُلْ شعري ولحيتي! مثل هؤلاء الناس لا يخافون العقاب الإلهي أو الإحساس بالخجل. ماذا تكون نتيجة الإنجاز لمثل هذا الشخص، حتى إن انكبَّ على الدراسة؟ هل سيجني منفعة كبيرة؟ هل سيذهب أبعد ممّا ذهب إليه الآخرون؟ لن يعطي مقدار ذرّة من الاهتمام للتعليم، إنه يذهب إلى المدرسة، حيث يجلس لبرهة، ثم يغادر. ليس ثمّة علامة لهفة أو اجتهاد! والده يوافق، بصعوبة، على تعليمه، وإن لم يجد أحداً يدفع المصاريف. مثل هذا الأب يجتزئ من ثروته لتعليم ابنه.

لـك هـذه النصيحـة: لسـت مضطـرّاً أن تجـد زوجـة لابنـك، أو تجعـل منـه غنيّـاً، بـل امنحـه تعليمـاً روسـياً دون تقصيـر، حتـى لـو دفعـت كلّ مـا جنيتـه؛ لأن هـذا يسـتحقّ كلّ التضحيـة.

إن كنـت تجـلّ اللـه، ولديـك الحيـاء، إن أردت أن يكـون ابنـك رجـلاً بمعنـى الكلمـة، أرسـله إلـى المدرسـة، لا تضـنّ عليـه بالنفقـة.

أمـا إن بقـى أمّيّـاً ونـذلاً، فمـن سيسـتفيد؟ هـل سـيكون عـزاءك وسـلواك؟ هـل سـيكون هـو نفسـه سـعيداً؟ هـل سـيكون قـادراً علـى تقديـم أيّـة منفعـة إلـى شـعبه؟

26

يبتهج الكازاخي إذا فاز جواده بالسباق، إذا كسب المصارع الذي راهن عليه، أو إذا أبلى كلب صيده أو صقره بلاءً حسناً في الصيد. أتساءل: هل ثمّة ما يسرّه في الحياة خلاف ذلك؟ أشكّ.

لكن، ما البهجة العظيمة في مشاهدة مخلوق يتفوّق على غيره في السرعة والرشاقة، أو أن يطرح مصارعاً غيره على الأرض؟ ليس المرء نفسه أو ابنه هو مَن نجح، حتى يدخل في طرب النشوة. لسبب هو الأتفه، يريد أن يزعج جاره، ويجعل منه حسوداً. حقاً، ليس ثمّة من عدوّ أسوأ للكازاخي من كازاخي مثله. من الشائع أن الغيظ والحسد هما ضدّ نواميس الشريعة، أيّة راحة يجنيها الكازاخي في إثارة حقد الناس عليه؟ لماذا هو مستمتع بذلك؟ لماذا يغتاظ الناس من النجاح أكثر من الحظّ؟ هل يعدّون أنفسهم مذلولين؟

فَرَس الرهان موجودة الآن في القرية، الصقر الجيّد أو كلب الصيد في يد رجل واحد الآن، في حين يكون آخر في يد أخرى. وأقوى الرجال لا ينحدرون جميعهم من القرية نفسها أيضاً. كل هذه النوعيات ليست من صنع اليدين. هؤلاء الذين أحرزوا، مرّةً، قصب السبق، وابتهجوا بالنصر، لن يكونوا، دائماً، هم الأسرع أو الأقوى. لماذا إذاً؟ هل هؤلاء يغتاظون، كما لو أن مكيدة سوداء أو عملاً وضيعاً صنعوه، قد كُشِفا؟ لماذا يعانون كما لو أنهم تَمّ الحطّ منهم ومن مراكزهم؟ ليس صعباً كشف السبب: الجَهَلة يبتهجون لأيّة مبذلة، لأيّ شيء تافه. عقولهم تثمل من شدّة السرور، هم ليسوا كما يقولون أو يفعلون. يشعرون بالخجل ممن ليس أقلّ منهم خجلاً، لكنهم يسلكون أكثر المسالك خزياً، دون خجل؛ هذه علامة الجهول والمتهوّر. إن قلت هذا للكازاخي، سيستمع وسيوافقك: «نعم، هذه حقيقة». لكن، لا تأخذ بكلماته، هو مثل الأغلبية: إنه يرى ويتفهّم كل ذلك، هو كالمخلوق العنيد الذي لن يتراجع عن سلوكه الشرير، ولن يقدر أحد على أن يثنيه أو يكبح جماحه، أو يرجعه إلى رشده. عمل الإثم ديدنه، لن يتخلّى عن ذلك. فقط، خوف كبير، أو الموت، هما ما يقطع عنه سوء السلوك.

حسناً، لن تجد شخصاً يصرِّح بخطئه، حاول أن تضبطه.

27

هاهي كلمات سقراط العظيم عن الخالق كليّ القدرة، في محاورة مع تلميذه أرسطو:

سقراط: «حسناً، أرسطو، هل تعتقد أن ثمة أناساً في الدنيا، وجودهم جدير بالإعجاب؟».

أرسطو: «يوجد العديد منهم، أيّها الأستاذ».

سقراط: «أنا معجب بهوميروس وبأشعاره الملحمية، ومآسي سوفوكليس، قدرة بعض البشر على تقمُّص أدوار أخرى، وأعجب بصورة زيوس.»

(يورد، هنا، أرسطو بعض الأسماء الكبيرة).

سقراط: «من- برأيك- الأكثر إثارة للإعجاب: شخص تعوزه الحيوية، في صورة إنسان، أم المخلوق بقدرة العليّ القدير،

الموهـوب بالعقـل والـروح؟»

أرسـطو: «الثانـي بـكل تأكيـد، لكـن، أن يكـون خلقـه نتيجـة لسـبب، وليـس بالصدفـة».

سـقراط: «الدنيـا فيهـا أشـياء كثيـرة مفيـدة. غايـة بعضهـا جليّـة واضحـة، فـي حيـن لا تكشـف بعضهـا الآخـر بالحـدس، فـي شـكلها الخارجـي. مـا رأيـك فـي مـا تكـون نتيجـة سـبب، ومـا هـي حاصلـة بالصدفـة؟».

«بالتأكيد، الأشياء الجليّة هي نتيجة سبب»، أجاب أرسطو.

«جيـد، الإنسـان فـي خلقـه، وَهَبـه العلـيّ القديـر خمـس حـواس ضروريـة: وهبـه عينيـن ليـرى البهجـة والجمـال مـن حولـه، وجعـل لهمـا جفنيـن ليغمضهمـا ويفتحهمـا، وأهدابـاً لحمايـة العيـن مـن الغبـار، وحاجبيـن لتفـادي العـرق النـازل مـن الجبهـة.

مـن دون أذنيـن لا نسـتطيع سـماع الصـوت الأجـش أو العـذب، ولـن نسـتمتع بالغنـاء والموسـيقى. بـدون أنـف لا نقـدر علـى الانتبـاه للأريـج الشـذيّ، أو تجنّـب الروائـح الكريهـة، بـدون لسـان وتجويـف الحلـق العلـوي، لا نقـدر علـى تـذوق الطعـم الحلـو والطعـم المـرّ، وتمييـز الناعـم مـن الخشـن.

أليست تلك الهبات غايات جيّدة؟

عيوننا وأنوفنا قريبة من أفواهنا، الأمر الذي يمكِّننا من رؤية ما نأكل وتذوُّقه. باقي الأعضاء الأساسية، والتي هي غير محبّبة، غير ظاهرة كما الأعضاء في الرأس. أليس هذا شهادة على أن الله خلقنا بتدبير؟».

بعد تأمُّل، اعترف أرسطو بأن الخالق كلّي القدرة، صنع صنيعه بحبّ عظيم.

قال سقراط: «إذاً، قلْ لي: لماذا كل مخلوق هو حنون على ذرّيته؟ لماذا يكره الموت، ويسعى للحياة أطولَ زمن ممكن؟ لماذا هو مهتمّ بالخلود؟ كل المخلوقات وُجِدت للحياة، والاستمرار فيها».

ومضى سقراط في حديثه:«ألا يشبه بدن الإنسان الأرض التي عليها يمشي؟ أليست قطرة الماء من جسدك هي قطرة من ماء الأرض؟ من أين يأتي إدراكك؟ ما أصله؟ إنك بفضل هبة الروح التي أصبحت وعاءً لذكائك السامي هذا. تعي الكمال، والتناغم الذي به خُلِقت الطبيعة، أنت ترى، وتُدهَش، لكنك لا تفهم ما ترى!.

هل الطبيعة صدفة بلا معنى، أم بسبب المالك للمطلق؟ الأحجية تمتدّ على أفق التفكير الإنساني، ويمكن فهمها بسبب إرادة

المشيئة، وبقوّة القوانين الثابتة، التي تتناسق بحكمة في سبب الخلق».

«صدقت، أيّها الأستاذ»، أجاب التلميذ.«من الواضح أن الخالق يملك رؤية سامية، لا أشكّ في قدرته الكلّيّة. مع هذا، لن أكفّ عن التساؤل: لماذا يريد الخالق صلاتي؟».

سقراط: «أنت مخطىء يا أرسطو، إن كان ثمة مَنْ يعتني بك وبخيرك ورفاهيتك، فأنت مدين له بالفضل. مثل هذه الحقيقة البسيطة يجب أن تكون واضحة لك».

قال أرسطو: لكني لا أعرف إن كان يعتني بي أم لا!

سقراط: « إذاً، انظر إلى الحيوانات وإلى نفسك. هل ندرك، بالحواس، الحقيقةَ، بالطرق نفسها؟ الإنسان قادر على التفكير في ماضيه وفي حاضره وفي مستقبله. هذا التفكير مبهم عند الحيوان، ولا يمكنه التفكير في مستقبله.

قارن الظواهر الخارجية للإنسان بالحيوان. الإنسان يقف على ساقين، كي يرى ما حوله، يستطيع إخضاع أيّ حيوان. الحيوانات تعتمد على أوصالها وأجنحتها، ولا تستطيع إخضاع جنسها. هل خلقَ الخالقُ الإنسان عاجزاً، كما الحيوان، كي يكون غير صالح لشيء؟ لقد خلق الإنسان ليكون سيّداً على الأرض. حتى إن

كان للحيوان بعض صفات الإنسان فهو غير مزوّد بالقدرة على الكَدّ، أو تعلُّم الخطابة أو الفضيلة. فكّر، هل بإمكان الثور بناء مدينة، أن يصنع الأدوات، ويكون حرفياً ماهراً. الواقع أن الخالق وهب الإنسان معرفة عالية ووضعها في الجسد المناسب، لتتَّحدَ، معاً، القوّة الروحية والأخلاق الحميدة؛ وهذا دليل أن الله خلق الإنسان محبّاً للعناية والاهتمام والحرص، كل ذلك مدروس؛ أليس البشر ملزمين بعبادة الخالق؟»

بهذا، ختم الأستاذ حديثه.

28

المسلمون!

الدنيـا فيهـا الغنـيّ وفيهـا الفقيـر، الصحيـح والمريـض، الحكيـم والغبـي، الجيّـد والـرديء. إن سـأل أحـد: لمـاذا هـي كذلـك؟ سـتجيب: «إنهـا إرادة اللـه».

يحـدث أحيانـاً، علـى أيـة حـال، أن اللـه يَهَـب الغنـى لمـن يشـاء، فـي حيـن ثمّـة مـن يعبـد اللـه ويكـدح بجـدّ، وبالـكاد يطعـم زوجتـه وأطفالـه، هـو مسـالم وغيـر مـؤذٍ، وغالبـاً، هـو واهـن وضعيـف، غيـر أن ثمـة مـن هـو وغـد ولـصّ ويتمتّـع بصحّـة جيـدة. يحـدث أن يكـون للأبويـن ابـن ذكـيّ وآخـر غبـيّ. يحـضّ الله كل إنسـان علـى أن يكـون طاهـراً ومسـتقيماً. يرشـد الصالحيـن إلى الطريـق السـليم، والخُطاة إلى الطريـق الأخـر. يكافـئ الصالحيـن بنعيـم الجنـة، والآثميـن بعـذاب جهنـم. أليـس ذلـك يناقـض العدالـة الإلهيـة؟ النـاس وأملاكهـم مـن

الله. وهو يوّزع ملكه كما يشاء.

كيف نفهم أفعاله؟

بافتراض أن الله لايخطئ، وتُنسب إليه تلك الأخطاء، أيعني هذا أن نلتزم الصمت خوفاً منه؟ إن كانت هذه قضية، ماذا كسب الإنسان الفاني من أعماله وجهوده إذا كان كل شيء بإرادة الخالق؟ إذاً، البشر غير ملومين. سواء أكانت أعمالهم خيِّرة أم كانت شريرة؛ أهم ينفِّذون إرادة الله؟

الإنسان العاقل يجب أن يعرف أنه من واجب المؤمن أن يفعل الخير.

إن لم تُمنح الحرّية لسبب؛ إذاً: ماذا عن الحقيقة: «ليعرّفني من يملك عقلاً». لو أن في ديننا خللاً، لماذا- إذاً- يحظّر على الإنسان العاقل التفكير في ذلك؟ الإنسان الذي هو في أحسن تقويم وبدون إيمان، ما قيمته؟ يجب أن تعرف أن الله أوجد الخير والشر، لكن، ليس هو من ينفّذهما. والله هو الذي أوجد الغنى والفقر، لكن ليس هو من يجعل البشر أغنياء أو فقراء، الله هو من أوجد الأمراض، لكن ليس هو من يجعل البشر تعاني منها، وإلا فسيغدو كلّ شيء غباراً وهباءً.

29

بعض أقوال الكازاخ تستحقّ الاهتمام، وبعضها الآخر لا يؤبه به، لأنها لا تحمل أيّة إشارة إلهية أو إنسانية.

يقول الكازاخ: «إذا كنت تعيش في عوز، اطرح من حسابك الخجل». ملعونة تلك الحياة التي لا تعرف الخجل!

لكن، إذا كانت الأمثلة تحضّ على تجنُّب الكدح في العمل، فإن الوضيع هو من يعمل بها. الإنسان الأخلاقي يجب أن يكسب قوته بإخلاص، لا أن يعيش على الصدقات، أو يعمد إلى الكسل.

ويقولون: «الإنسان الذكي يقدر على البهجة في أحلك الظروف»، و«تستطيع الحصول على أي شيء، إن عرفت كيف تسأل». بعض الأقوال مدانة من الله! أليس من الأفضل أن تكسب قوتك من الأرض بكدّك وعرق جبينك، بدل أن تعوّل على المكر واستعطاء كسرة الخبز على موائد الأخرين؟

«إن كنت مجهولاً فالجحيم أمامك». لكن، ما حاجتك إلى السمعة السيئة؟

«أن تكون فحلاً ليوم واحد أفضل من أن تكون مخصيّاً لمئة يوم» لكن، ما الفائدة التي ستجنيها من انغماسك في الملذّات ليوم واحد لتخلِّف الخراب في أعقاب ذلك؟

«حتى الملائكة تضلّ الطريق عند رؤية بريق الذهب». ما حاجة الملائكة للذهب؟ بمثل هذه الأقوال يبرِّر الناس جشعهم، فحسب.

«خزنة المجوهرات أعزّ من الأب والأم، إلا أن حياتك أغلى من قصر من الذهب». الآن، ما الثمن الذي يضعه وغد في حسابه عندما يُعلي من قيمة خزنة المجوهرات على قيمة والديه؟. فقط، الشخص الذي يكون بلا عقل أو ناموس مَنْ يبدِّل الأمّ والأب بالذهب. الأبوان يكدحان من أجل رفاهية أطفالهم، والذي يساوي والديه بالمجوهرات يقترف إثماً وضيعاً.

على الإنسان أن يحذر في ترديد أمثالٍ تولِّد التعصُّب، والطيش، وعدم مراعاة حقوق الآخرين ومشاعرهم.

30

مَنْ ننعته بـ(المتبجِّح، الثرثار) موجود بيننا؛ إذا اختبرت أربعين من الناس سوف تجد واحداً منهم من تلك النوعية. فيم ينفعون؟ ينقصهم الإحساس واحترام الذات، أفقهم ضيِّق وسطحيون، تنقصهم الشجاعة والضمير المتيقِّظ.

البعض منهم يقذف كلاماً في تبجُّح: «لا تزعجني. هل الآخر أفضل مني؟ هل قامة الآخر أطول من قامتي؟ هل وضع لحماً في قِدري، أو منحني ماشية للَّبن؟». أو يتكلَّم بحدّة قصد النية السيئة: «لماذا أبخل على نفسي؟ أليست حياتي تستحقّ الكثير؟ أنا مستعدّ لمواجهة الرصاص بشجاعة، أو أنا أبتعد لسبب نبيل! نحن نموت ميتة واحدة».

هل صادفت هؤلاء الكازاخ الذين يعملون بمثل هذه الأقوال؟ عن نفسي أقول: لم أرَ واحداً روَّض نفسه على الموت، غير أنه

ليس ثمة من يعترف بخوفه من الموت. الحقيقة أن أيّ واحد منهم كما لو أنه سيشقّ حنجرته براحة يده في إيماءة استعداد للتضحية: «لأكن القتيل في الحال» هل هذه الأقوال صادقة؟ حديثهم- ربّما- يخدعنا: إن لم يكن بذكاء صاحبه، فبجرأته المذهلة. بعدها، ماذا نقول عن أحدهم عندما يجبن وينسلّ إلى أقرب حفرة ساعة الجدّ؟ هذا لا يعدو كونه شجاعة زائفة لترويع مخلوعِ الفؤاد كي يعترف: «في الحقيقة، غضبه فظيع».

يا الله، لو كان طيّب القلب شهماً وغير أناني! إن كان شجاعاً وصادقاً في قوله، ألا تظهر هذه الصفات المباركة على محيّاه؟

هذا الشخص من النماذج المخزية التي نقول عنها: «وجه صفيق لا يملّ الثرثرة».

31

يمكننا تعيين أربعة مفاهيم أساسية للإدراك الحسي ونفاذ البصيرة، وحفظها عن ظهر قلب:

أولاً، يجب أن تكتسب الواعز الديني والعزم.

ثانياً، يجب أن تولي اهتماماً بالنصيحة، بيقظة وقلب مفتوح، توّاق لفهم المغزى منها؛ أي من النصيحة.

ثالثاً، يجب أن تتأمّل- مليّاً- في الأقوال الحكيمة وتردِّدها دائماً، فلها موضع الأهمّية بالنسبة للذاكرة.

رابعاً، يجب تجنُّب المواقف والحالات الضارّة للعقل، ومقاومتها، حتى لو كانت مغرية. هذه الحالات هي: الكسل، والإهمال، واللامبالاة، واللهو الأحمق الفارغ، والميل للكآبة التي تحبط العاطفة.

هذه النقائص تدمِّر عقلك وموهبتك.

32

هـؤلاء الذيـن يبحثـون عـن التعليـم، ينبغـي عليهـم معرفـة شـروط أساسـية، بدونهـا لا يمكنهـم تحقيـق أهدافهـم:

أولاً، يجـب ألّا تطمـح فـي كسـب مـن وراء تعليمـك. يجـب أن تتعلّـم مـن أجـل ترقيـة نفسـك، وأن تكافـح مـن أجـل ذلـك. إذا عـددت المعرفـة نعمـة سـامية، فـكل حقيقـة صغيـرة تكتشـفها سـوف تعـود عليـك بالسـلام، والرضـى الروحـي، الحفـظ، عـن ظهـر قلـب، لمـا يشـكّل لـك جديـداً، عندهـا، ستشـعر بالرغبـة فـي البحـث عـن المزيد، وحـبّ المعرفـة- حينئـذٍ- سـيولَد فـي قلبـك. وسـتمتصّ ذاكرتـك كلّ مـا سـمعته وشـاهدته.

لكـن، إن كان لديـك مبتغـى آخـر فـي ذهنـك، فابحـث عـن المعرفـة قصـد الثـراء، فحسـب، موقفـك مـن التعليـم سـيكون كالربيبـة بالنسـبة للمـرأة. إن كانـت روحـك وعقلـك بخيـر قصـد المعرفـة، سـيكون

استعدادك عن طيب خاطر.

ثانياً، الدراسة لأهداف جلّيّة ونبيلة، وليس للدلالة على مجادلتك للآخرين. المحاججة في حدود المعقول تساعد المرء في قناعاته، لكن الحماسة المفرطة تفسده. عشّاق الجدل يندفعون في الخلافات، ليس بقصد التحقُّق من الشيء بالتجربة، بل للتباهي بمعرفتهم وبسط أيديهم على الناس. مثل هذه النزاعات تنتج الحسد، ولا تضيف مثقال ذرّة للإنسانية، بل على العكس من ذلك، هي لا تخدم المعرفة، وببساطة، تشوّش الناس. هذا سلوك عقيم ومثير للمتاعب. الذي ضلَّلَ مئات الأشخاص عن الصراط المستقيم لا يساوي أصبعاً صغيراً لشخص نجح في إعادة شخص واحد إلى نهج الحقيقة.

صحيح أن المناظرة هي إحدى طرق المعرفة، إلا أن الشخص الذي يهب نفسه- تماماً- لهذه المسارات المجازفة يصبح مغروراً ومتكبِّراً، عرضةً للحسد وللقيل والقال. مثل هذا الشخص لن يبغض تشويه سمعته، وكذلك حال الاغتياب، والقدح، اللذين يقلِّلان من كرامة الإنسان.

ثالثاً، إذا نجحت في سعيك وراء الحقيقة، فلا تتراجع عنها حتى مع أوجاع الموت. لكن، إن لم تكن مقتنعاً بمعرفتك، فلا تتخيّل أن شخصاً آخر سوف يقدِّرها. إن لم تقدّر أنت معرفتك، كيف

تتوقَّع الاعتراف بها من الغرباء؟.

رابعاً، ثمّة وسيلتان تساعدانك في اكتساب المعرفة: الأولى مولاكازا (فن المناظرة)، والأخرى موكافازا (قوّة الدفاع عن الفكرة). ولضرورة الكفاح المستمرّ لإنجاز ذلك، من المستحيل تعزيز معرفتك وتطويرها، من غيرهما.

خامساً، تحدّثت، منذ قليل، عن أربعة مواقف مؤذية للعقل، ومن خلالها تعرّفنا إلى الكسل والتفاهة. أفرض عليك أن تكون حذراً من هذه الشرور؛ إنها مهلكة في مواجهة الله، وللمرء نفسه، مهلكة لكينونتك وشرفك. إنها العدو الرئيسي لكل شيء! مع ذلك، ليس ثمة مكان للشرّ عندما يسكن المرءَ الضمير.

سادساً، شخص المرء وعاء للذكاء والمعرفة؛ لذلك طوّر شخصيتك، وأنت- بسماحك لنفسك أن تكون تحت تأثير كلمات الآخرين وهوى خاطف- ستفقد قوّة شخصيّتك. التعليم لا فائدة منه إن كان الوعاء الذي يستقبل المعرفة ليس سليماً.

لتحقيق هدفك، ولتكون مخلصاً لواجبك، يجب أن تتحلّى بالجَلَد في سبيل غايتك، وبعزمك وبقوّتك؛ لذلك احتفظ برزانتك ورشدك ونقاء ضميرك.

كلّ شيء يجب أن يخدم كينونتك وشرفك.

33

إن أردت الإثـراء فتعلَّـم التجـارة. الثـروة تنقـص بمـرور الزمـن، لكـن المهـارة تـدوم. الـذي يبيـع الفواكـه نتـاج عملـه دون غـشّ سيُكبِره النـاس، ومـع ذلـك، لا يمكـن لمَـنْ منحهـم اللـه موهبـة المهـارة أن يتجنّبـوا بعـض الرذائـل:

أولاً، هـم لا يسـعون لصقـل مهارتهـم بالبحـث عـن التعلُّـم مـن أمهـر الحرفييـن. مكتفيـن بالقليـل مـن البراعـة التـي لديهـم، مثـل هـؤلاء، يطلقـون العنـان للتراخـي والكسـل.

ثانيـاً، يجـب علـى المـرء أن يبجّـل عمـل الآخـر، لكـن، ثمّـة مـن اكتسـب بعـض الماشـية، فاعتقـد أنـه ثـريّ، وأصبـح كسـولاً متبجّحـاً ومهمـلاً لعملـه.

ثالثـاً، إن فاتـح شـخص أحدهـم فـي طلـب مثـل: «أنـت رجـل علـى مقـدرة، وشـهم، ولـن يكلفّـك كثيـراً إن خدمتنـي فـي هـذا أو

ذاك» فسينتفخ فخراً، ويعتقد أنه أصبح مهمّاً، ويدنو منه الناس للمساعدة، يستسلم للإطراء والغرور، ينفق وقته الثمين في السماح للمكر والتملُّق يخدعاه.

رابعاً، مثل هؤلاء توّاقون لصداقة أيّ أحد. إن احتال عليهم محتال بالشيء القليل، فَسيَعِدونه بالمساعدة، ويشعرون بالحبور من أن شخصاً ما يحتاج صداقتهم. هنا، تنكشف سذاجتهم وقلّة درايتهم. إنهم مستعدّون لتصديق اللسان الكاذب، ويبتهجون لتحيّة مزيَّفة من أصدقاء مزيَّفين، إنهم لا يدَّخرون وسعاً في مساعدة هذه النوعية في مزاعمهم. يعطون بقدر نسيانهم. ماذا يجنون في المقابل؟ يهتمّون به ويلتزمون، وإن لزم الأمر يستدينون له من أيّة جهة. من أجل إرضاء الآخرين، يضيّعون أوقاتهم، ويراكمون ديونهم، ويتورّطون في نزاعات بسبب هذه الديون، يخسرون ماء وجوههم، ويعيشون الحاجة والخزي.

لماذا يحدث هذا؟ لأنهم في ميلهم لخداع الآخرين، يخدعون أنفسهم، ومن ثَمّ يقعون فريسة الخداع.

34

الجميع يعرفون أن الإنسان فانٍ، ذلك أن الموت لا يأتي بسبب الهرم وحده، الموت الذي يأخذ الإنسان بعيداً، ولا يعيده. الكازاخ قلقون بسبب هذا، ولكن، دون عمق في التفكير.

الكازاخ يؤمنون بالله الذي سوف يحاسبهم بعد مماتهم: يكافىء الأخيار، ويعاقب الأشرار. إنهم يؤمنون بأن كلّاً من المكافأة والعقاب يختلف بالنسبة إلى هؤلاء الذين كانوا يعيشون على الأرض: مكافأة الله لهم لا حدود لها، لا لسبب إلا لسماحة أنفسهم، في حين يكون قصاصه قاسياً وهائلاً. لكني لا أثق في كلماتهم هذه؛ ذلك أن إيمانهم ليس صادقاً، ولا ينمّ عن ضمير. إن كان إيمانهم يوافق قولهم فلن يعرفوا الأسف. هل يمكن إقناع بشر كهؤلاء ببعض الأمور الأخرى إن كان إيمانهم ضعيفاً، حتى فيما يتعلّق بمثل هذه الحقائق؟ كيف يمكن تصحيح مساراتهم؟ هل من الممكن تسميتهم مسلمين؟

على الذي يريد تجنُّب العذاب في هذه الدنيا وفي الآخرة أن يتذكَّر شيئاً واحداً: ليس ثمة سعادتان وعاطفتان وارتيابان وأسَفان في قلب المرء، في وقت واحد. هذا مستحيل، الذي يضع الأفراح والأتراح الدنيوية بعيدة عن العالم القادم ليس مسلماً. الآن، لك أن تحكم: أيّ نوع هم الكازاخ. لو خُيِّروا بين شيئين: أن يكونوا خالدين في قبر، أم خالدين في الحياة. سوف يختارون الخيار الثاني بالتأكيد، على أمل أن يحظوا بالخيار الأوّل في مناسبة أخرى، ويؤمنون بأن الله، لرحمته الواسعة، سيغفر لهم خيارهم الخاطئ، قبل يوم الحساب، سيقْسمون بأنهم لن يبدّلوا مباهج الدنيا بمباهج الآخرة، كيف يمكن تصديقهم؟

على الإنسان أن يكون محبّاً لأخيه الإنسان طوال حياته. ذلك أن الولادة والتربية والرضى والجوع والأسف والحزن وشكل البدن والطريقة التي يأتي بها إلى الحياة، والطريقة التي يغادر بها، كلّها واحدة للجميع، في العالم الآخر الأشياء نفسها تنتظرنا: من الموت والدفن والتفسُّخ إلى يوم الحساب. كيف تعرف إن كنت ستعيش خمسة أيام أخرى أم لا؟ كل الناس ضيوف، بعضهم على بعض، الإنسان نفسه ضيف في هذه الحياة، هل من الجيِّد- إذاً- أن نتحدّث بحقد، وننساق في شجار بسبب الثروة، ويحسد بعضنا بعضاً بسبب سعادة أحدنا، ونمضي، يسيء بعضنا إلى الآخر من أجل أشياء تافهة؟ أن نهاب شخصاً ولا نهاب الله؟

أن نصلي، ليس من أجل السعادة الروحية، بل من أجل أمور دنيوية؟ أن نحسد الآخر على نِعَم يتمتَّع بها؟ هل نرجع إلى الله بمثل هذه الأسباب والالتماسات؟ هل الله يذلّ شخصاً ويحرمه؛ إكراماً لشخص آخر؟

عندما لا يكون لك عقل سليم وتعليم نافع ولا تستطيع قول كلمتين، وتتجادل بعناد وصلف مع رجل حكيم، هل يمكن أن تكون إنساناً؟ هل هذه صفة الإنسان، الإنسان الحقيقي؟.

35

فـي يـوم الحـقّ، يسـأل العلـي القديـر المراتـب الدينيـة، كالسـادة والملالـي والحجّـاج الشـيء الكثيـر عـن مـدة حياتهـم علـى الأرض، عـن أعمالهـم التـي يبغـون مـن ورائهـا الاحتـرام فقـط، سـيميّزهم عـن أولئـك الذيـن ينشـدون رضـوان اللـه.

لهـؤلاء سـيقول: «خـلال حياتـك الأرضيـة خدمتنـي ريـاءً، قصـد البحـث عـن الاحتـرام عنـد النـاس، لكـن ذلـك انتهـى الآن، حياتـك السـعيدة انتهـت، وكذلـك سـلطتك علـى النـاس. هنـا ليـس مـكان التكريـم، بـل الحسـاب عـن كل أعمالـك، وسـتجيب عـن الأسـئلة. وهبتـك الحيـاة ومنحتـك الثـروة، لكنـك وظّفتهـا لفائدتـك الشـخصية، خدعـت النـاس تحـت سـتار هيئـة الحريـص علـى العالـم الآخـر».

لكـن، للذيـن خدمـوه حقيقـةً، سـيقول لهـم العلـيّ القديـر: «طـوال حياتكـم، وفـي كل أعمالكـم سـعيتم لرضـاي، فأنـا راضٍ عنكـم،

مكان الشرف في استقبالكم، ومُرحَّب بكم، ربّما ستقابل أشخاصاً ساعدتهم أو آخرين ساعدوك بحسن نواياهم، إذاً، ابتهج).

36

يقول نبينا الكريم- صلوات الله وسلامه عليه- أن الحياء شعبة من الإيمان». قومنا- بالمثل- يؤكّدون هذا الحديث في بعض أمثالهم: «الذي لديه حياء لديه إيمان».

يتّضح، الآن، أن الحياء جزء متمِّم للإيمان، لكن، ما الحياء؟

ثمّة حياء وليد الجهل، إنه القريب من تردُّد الطفل الذي يخجل من التفوُّه بكلمة أو الدنوّ من الغريب، الذي هو معفيّ من قوانين الشريعة، ولم يتبلور الضمير لديه بعد. لكنه يخجل مما ليس منه خجل مُظهراً علامة على الغباء وقلّة التهذيب.

لكن الهوان الحقيقي هو الذي يشعر به من يعمد إلى مخالفة قوانين الشريعة، وإيذاء الضمير وسموّ المنزلة الإنسانية.

مثل هذا الهوان نوعان:

الأول هو أن تخجل، ليس من أجل نفسك، بل من ذنب شخص آخر، بسبب إحساسك بهذا الإثم، وتفكّر بينك وبين نفسك: يا الله، ماذا حدث لهذا الرجل؟ لماذا أقدم على مثل هذا العمل غير اللائق؟، ثم تشعر بالاستحياء من أجله.

الثاني هو إثمك في مخالفة كلّ من الشريعة، وضميرك، وإنسانيّتِك، عند ارتكابك خطأً أو عملاً غير صالح عن غير قصد. ربّما، لا يدرك حجمَ الخطأ غيرُك، لذلك فإن عقلك وكيانك في كرب، وسيعاقبانك. تعيش القلق، غير قادر على النظر في عيون الآخرين، وتضحي تعاني.

الذين لهم هذا الشعور من الحياء، يفقدون شهيّتهم للطعام، يجدون صعوبة في النوم، وفي غمرة هذا القنوط واليأس- ربَّما- يعمدون إلى الانتحار. شعور الحياء والخجل مرتبة من الكرامة الإنسانية التي تُخضع المرء للاعتراف بذنبه أمام نفسه، ومواجهة ما يترتّب عليه من عقاب. في مثل هذه الأيام، أنت عاجز عن التفكير ومُرتَبِكٌ في الحديث، ليس لديك الوقت الكافي لمسح الدموع عن وجهك، تشعر بنفسك كما الجبان المتباكي، غير قادر على مواجهة نظرات الناس إليك، تتعامى عما يحيط بك. الشخص الذي يعرف عن مثل تلك العذابات، بدلاً من مسامحة الآثم برحابة صدر، يجعل من معاناته النقيصةَ الأسوأ في الرحمة

الإنسانية.

القوم الذين أراهم حولي هذه الأيام لا يستحون من شيء، وعاجزون عن الخجل. يقولون: اعترفت بذنبي، ماذا تتوقَّع مني أن أفعل فوق هذا؟، أو يجدون أعذاراً: نعم سلوكي كان سيِّئاً، ولكن، ألم تسلك أنت مسلكي؟، أو يجادلون: هذا وهذا من الناس فعلوا كذا وكذا، ولكنهم يسيرون في الأرض كما أنه لم يحدث شيء. مقارنةً بهم لم أقدم على خطأ، على الرغم من توفُّري على الأسباب لعمل هذا الشيء أو غيره. بدل الشعور بالحياء من عملهم يظلّون يبحثون عن تبرئة أنفسهم.

ماذا نطلق على مَنْ يكون من هؤلاء: وجهه خجول، أو صفيق الوجه؟ الحديث الشريف والأقوال الحكيمة لا تسمح لنا بوصفه بأنه ذو وجه خجول.

الآن، هل يملك مثل هؤلاء الإيمان أم لا؟

37

1 - الحكـم علـى طبيعـة الإنسـان يكـون مـن خـلال مغـزى عملـه، وليـس حصيلـة ذلـك العمـل.

2 - مهمـا كانـت الفكـرة جيّـدة، فإنهـا تتشـوّه عبـر مرورهـا بالشـفاه الإنسـانية.

3 - قـد تجـد العـزاء فـي إسـداء نصـح للمغروريـن بكلمـات حكيمـة، إلا أن تلـك النصائـح- فـي الغالـب- تتلاشـى فـي الهـواء.

4 - الردّ جيّد للإنسان الحكيم، لكن الأحمق يفسد به.

5 - أبو الابن عدوّ للآخرين، لكن ابن الإنسانية هو أخوك الأعزّ.

6 - الإنسـان القنـوع قـد يسـأل عـن الكثيـر، لكنـه يرضـى بالقليـل، الإنسـان الخسـيس يسـأل عـن الكثيـر، لكنـه يكـون مسـتاءً حتـى وإن ظفـر بأكثـر ممّـا طلـب.

7 - الذي يعمل لمصلحته الشخصية، كالحيوان الذي يرعى لملء بطنه، لكن الذي يعمل من أجل تأدية واجبه الإنساني سيميّزه العليّ القدير بحبّه.

8 - مَنْ سَمَّم سقراط؟ و مَنْ أحرق جان دارك؟ و مَنْ صلب المسيح؟ من أساء إلى نبيّنا؟ العامّة، الدهماء!؟ الدهماء لا عقل لها، ابحث، مباشرةً، في طريق الحقيقة.

9 - الإنسان ابن عصره، إن كان سيّئاً فاللوم يقع على معاصريه.

10 - لو كانت عندي سلطة فسأقطعَنْ لسان من يجزم بأن الإنسان فاسد، ولا سبيل إلى تقييمه.

11 - أن تكون وحيداً، هذا يشبه أن تكون ميّتاً. الإنسان الوحيد يعاني من مِحَن شتّى.

العالم عرف أشياء آثمة وفاسدة، من كلّ نوع، وعرف السرور من كلّ نوع أيضاً، من تتحمَّل كرامتُه الأولى؟ ومن الذي لن يفسد من الثاني؟

12 - مَنْ منّا لم يعرف المتاعب؟ الضعيف- فقط- يفقد الأمل. ليس ثمّة شيء ثابت في الدنيا، وسوء الحظّ لا يدوم إلى الأبد، أليس الربيع المزهر يأتي بعد الشتاء القارس؟

13 - الذي يكظم غيظه يحوي غضبه داخل نفسه، الذي يسبّ، ويشتم: إما متبجِّح أو جبان.

14 - النجاح وحسن الحظّ يُثمِلان المرء، واحد من ألف- فقط- يحتفظ باتّزانه.

15 - إذا أردت لأعمالك النجاح، فابدأ بما في يدك من عمل، بحكمة.

16 - المنصب العالي كالمنحدر العالي. الأفعى البطيئة ستزحف إلى فوق، والصقر سينقضّ عليها، سأطري أولئك الذين لم يتطلّعوا إلى أعلى، فيما بعد، سيكتشفون سبب الإطراء.

17 - العالم محيط، الزمن نفحة هواء، الموجات الأقدم هي الأخوة والأخوات الأقدم، والموجات التالية هي الأخوة والأخوات الأحدث. جيل يخلف آخر، رغم أن الأمور تبدو غير قابلة للتغيير، في مناخ السكون والهدوء، في هذه الأحداث.

18 - الرجل العادي المعروف بفطنته، أفضل من ملك جاء نتيجة الحظّ الحسن. الشابّ الذي يبيع نتاج عمله أفضل من الشيخ الذي يستعطف الناس بشعيرات لحيته.

19 - المتسوِّل وبطنه ممتلئ هو الشيطان مجسَّداً، الصوفي

الكسـول منافـق.

20 - الصديـق المزيَّـف كالظـلّ: عندمـا تكـون الشـمس مشـرقة عليـك لـن تتخلّـص منـه، وعندمـا تتجمّـع فوقـك السـحب لـن تـراه أبـداً.

21 - كـن صادقـاً مـع مـن ليـس لديـه صديـق، ابـقَ علـى علاقـة متبادلـة مـع هـؤلاء الذيـن لديهـم العديـد مـن الأصدقـاء. احـذر الإنسـان الطائـش، كـن سـتراً للمحـروم والمُعـدَم.

22 - لا حاجـة إلـى الغضـب بـدون قـوّة، وإلـى حـبّ بـدون إخـلاص، ذلـك كمـا المعلِّـم بـدون تلاميذ.

23 - عندمـا تبحـث عـن السـعادة فإن الجميـع يتمنّونهـا لـك، لكـن، عندمـا تحقِّقهـا تـدرك أنـك أنـت- فقـط- مـن سـعى إليهـا.

38

أطفالـي الأعـزّاء، يـا سـلوان القلـب، كتبـت، لتـوّي، بعـض الأقـوال عـن الأعمـال الإنسـانية، أورثكـم مـا كتبـت علـى سـبيل التذكـرة، وسـيغمر الحـبّ أفئدتكـم.

الحـبّ الإنسـاني متـلازم مـع الوجـود بـإدراك إنسـاني، والمحبّـة والتعاطـف مصـدر هـذه المزايـا التـي تنشأ عنـد الإنسـان منـذ ولادتـه: الصحـة الجيّـدة، والمظهـر الحسـن، أمـا الباقـي فيتوقّـف علـى نبـل روح الأب والأمّ، وعلـى الناصـح المخلـص والأصدقـاء الجيديـن. الحـبّ يولِّـد الطمـوح والتفاهـم، الإدراك والمحبّـة يثيـران الشـوق للتعلُّـم. الطفـل لا يتـوق إلـى التعلّـم مـن محـض إرادتـه، بـل يجـب إجبـاره علـى البحـث، أو إقناعـه حتـى يكتسـب العطـش للمعرفـة. الطفـل الباحـث عـن المعرفـة- ربّمـا- يُعَـدّ إنسـاناً بمعنـى الكلمـة، هـو- بـدوره- يناضـل لمعرفـة اللـه، ويعـرف نفسـه، ويعـي مـا حولـه، سـوف يفعـل الخيـر، لكـن ليـس علـى حسـاب شـرفه، وسـيتجنَّب

الشرّ، وإلا سيكون محكوماً عليه أن يعيش في الجهل، أو كحيوان، وينال معرفة سطحية. من المخزي أن بعض الآباء يُنشئون أطفالهم تنشئة سيِّئة، ثم يعهدون بهم إلى الملالي، إلا أن مثل هذا التعليم لا نفع من ورائه. الأطفال الذين تعرّضوا لإفراط في التدليل، منذ الولادة، لا يظهرون شغفاً بالتعليم أو بالدين، أو احترام مدرِّسيهم الخاصّين. سوف لن ينموا كبشر حقيقيين.

أصعب الأشياء هي غرس روح الإنسانية وتطبيعها بالمحبّة والعطف، ذلك أن الله هو طريق الحقّ والصدق والإخلاص، وهذه الصفات ضدّ الشرّ. هل يقبل صديق دعوة من عدوّ؟ لا يمكن الظفر بالحقيقة ما لم تكن النفس في شغف لها. المعرفة الإنسانية تُكتَسَب عن طريق معاني حبّ الحقيقة، ومن خلال العطش لمعرفة المرء لجوهر نفسه وطبيعتها. بالطبع، ليست المعرفة الإلهية. فضول الإنسان، والسعي للمعرفة يُضفيان- فقط- معرفة تتناسب مع وجود الإنسان. لكن، فوق كل ذلك يجب على المرء أن يحبّ الله. من المسلَّم به أن المعرفة إحدى صفات العليّ القدير؛ لذلك فإن حبّ المعرفة علامة على الإنسانية والاستقامة. هؤلاء الذين يسعون للكسب الزائف والرديء والأنانية لن يصلوا إلى قمّة المعرفة. دع الثروة واحترام العامّة والشهرة التي تأتي لصاحبها بالمفخرة تلائم بعض من يتَّفق معها، لكن هؤلاء يُعَدّون من سفلة القوم.

إذا كنت شغوفاً بمعرفة الحقيقة والرغبة في التعليم، استمع بيقظة، وكن مجتهداً. المؤمن بالإسلام يجب أن يعرف أين تكمن حقيقة الإيمان؛ ذلك أن الإيمان ليس عبادة عمياء ببساطة، لنفترض أننا نؤمن بالله، هذا يعني أن حكمة القرآن تعبّر عن دلالته، والنبي المصطفى- صلّى الله عليه وسلم- هو مبلّغ رسالة الله، وهي القرآن. ما الكسب من وراء هذا الإيمان؟ هل تؤمن بالله لأنه الله، أم من أجل نجاتك وخلاصك؟ الله هو العظيم، ولن يؤذيه فقدانك الإيمان به. إذا قلت إن إيمانك ضروري لنفسك فهذا جيّد، وهذا يعني أنك، في الحقيقة، مؤمن، ولكن إذا كان إيمانك من أجل الإيمان، فحسب، فلن تظفر بشيء. إيمانك سوف يثبت حقيقة استقامتك، وسوف يعود عليك بالمنفعة، إن رغبت فيه رغبة صادقة. يجب أن تعرف شعور المعنى والمقصد، وتعرف أن عقلانية إيمانك قد تحقَّقت.

تقول إنك تؤمن بالله، وتؤمن بصفاته وأسمائه الحسنى؛ إذاً، يجب أن تعرف أسماء الله الحسنى، يجب أن تعرف عظمة ثمانٍ من صفات الله، ما إن تدعو نفسك مسلماً، وتعبد العليّ القدير، وتخُضع فكرك ومقصدك لإرادته العليا. خلق العليّ القدير لا يمكن تقليده، ولكن، يمكنك اتّباع مناهجه في أعمالك. هذه أكثر صفات الله إشعاعاً: الحياة، والمعرفة، والقوة، والإرادة، والبصيرة، والسمع، والقول أو الحديث، والإبداع.

الخالق وهب الإنسان هذه الصفات الثمانية، وهي من صفاته، عَزّ وجَلّ، ولو أنها ليست الكمال المطلق كما ينبغي للعليّ القدير.

هل نعدّ أنفسنا مسلمين إذا لم نوظِّف هذه الصفات الموهوبة من الله وفقاً لمشيئته وإرضائه؟ يجب أن نعرف كيف نتصرَّف وفقاً لهذه السمات العليا لله؛ ذلك أن طبيعة الله لا تحتاج وصفاً أكثر مما هي عليه من الكمال. مع ذلك، يجب أن تكون لدينا فكرة واضحة، في أذهاننا، عن تلك الصفات المذكورة آنفاً، وإلّا فلن يكون عندنا إدراك للعليّ القدير. لكن، طالما أننا نعرف الله ظاهرياً فلن يعرف أحد منا الله في كماله المطلق. حتى أحكم الحكماء لن يستوعب المعنى الباطني لأفعاله، ناهيك عن جوهر طبيعته. الله كلّيّ القدرة، لكن قدرتنا محدودة، ومن المستحيل مقارنة اللامحدود بالمحدود. في الحرص على تثبيث فكرتنا عنه نردِّد: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، الواحد الأحد»، فوق ذلك هناك مفهوما «كينونة الله»، و«الواحد» لا يمكن أن يوضِّحا- ماهيّة الله؛ ذلك أنها فوق الفهم الإنساني، وليس ثمّة ظاهرة لنقيس بها وحدة الواحد. وبالمثل، هذا القياس ينطبق على كمال الكون وسلطان الله عليه، كما يتجلّى ذلك في سُوَر القرآن الكريم، حيث الإشارة إلى الثوابث الثمانية المتجلّية في أسمائه التسعة والتسعين التي تصوّر قدرته، عَزّ وجَلّ.

لكـن، هنـا أودّ إمعـان النظـر فـي أربـع صفـات فقـط: الاثنتـان الأُولَيـان: المعرفـة، والقـدرة، فـي حيـن تشـكِّل الأخريـان كلّاً لايتجزّأ، وإضافة إلى جوهر الأولَيْن. وأودّ أن أخصّ بالذكر صفة إلهية أخرى هي الحياة. نقول: «لا إله إلا الله الواحد الأحد»، إننا نخشاه بصفته مصدر المعرفة، لكن، لنفكِّر، ملّياً، في مدى مفهومنا لـ«الكينونة» و«الواحد» و«القدرة» و«المعرفة». مما لا شكّ فيه أن قوّة المعرفة هي قوّة حقيقية: حيثما توجد الحياة توجد الإرادة، وهذا ـ أيضاً ـ ينطبق على المعرفة. المعرفة نفسها لا تعطي شيئاً. كلّ حركة على الأرض بإرادة قدرة الله الكلّيّة. إحدى الصفات الجوهرية للإرادة هي الكلمة، ومن الكلمة تتشكَّل الكلمات؛ هل في وسع الكلمة الاستغناء عن الحروف المكتوبة والصوت؟ كلمة الله- فقط- بدون حروف أو صوت. طالما أن هناك حاجة للكلام فلابدّ من سماع ما يُقال، ورؤية ما هو مرئي. الله لا يسمع، ولا يرى مثلنا، فإحدى صفاته- عَزّ وجَلّ- أنه كلّيّ المعرفة، ومصدر المعرفة.

صفة أخرى من صفات الله هي الخلق، أي أنه ليس لخلقه حدود. إنه الخالق لكلّ الأشياء.

إذاً، من ثَمّ فإن المعرفة والقوة تُعطيان الله صفاته الثماني كلّها. المعرفة مطلقة وغير محدودة، والقدرة مطلقة ومعصومة.

الحِرفي يُحكَم عليه من خلال عمله. الإنسان ليس لديه القدرة المطلقة على أن يخلق، ويوجِد كلّ شيء.

إذا كان العقل هو سيّد الإنسان، والمقدرة تخدمه في كلّ أفعاله، هل هي بالكيفية نفسها عند الله؟ بكلمة أخرى: واحدة تقود إلى الأخرى. ولكن عندها، هل يمكن لصفات الله الثماني، أن تكون في صورة واحدة، ولكنها مختلفةٌ ومستقلّةٌ كينونةً؟ كلّ هذه الخواص الثماني صادرة من خالق واحد، تجسّد، في مجملها، الكمال الفريد لصورة الله.

سوف نقع في خطأ عندما نعزو بعض التصاميم المسبقة إلى وحدتها في الأساس؛ ومن ثَمَّ نؤمن أن صياغتها هي للتوضيح أو للتعبير عن صورة القدير. تكمن مقدرة الإنسان في عقله وفي معرفته. قدرة العليّ القدير تتجلّى في المعرفة والحنوّ والرحمة. رغم أن الحنوّ والرحمة لم تُذكرا ضمن صفاته الثماني، ذلك أنها من أسمائه: الرحمن، والرحيم، والرؤوف، والغفور، والودود.... تلك الأسماء تؤكّد حجّتي وبرهاني وتؤيّدهما.

منطق استنتاجي يؤكّد أيضاً، وبطريقة مماثلة، التناسق المدهش لكونية الخالق. في الواقع، كل شيء صُمّم لتبادل المنفعة: الأجسام غير الحيّة التي لا تشعر بالألم تُقدّم غذاءً للمخلوقات الحيّة؛ تُغذّي الحيوانات حياة الكائن الذكي: الإنسان. الحيوانات

مستثناة من البعث، في حين، يكون الإنسان، موهوب العقل والسلطان على كل شيء في الأرض، قادراً على الإجابة عن أعماله يوم القيامة ليدلي بشهادته أمام الله ورحمته. لقد خلق الله الإنسان، ليس بصورة الديدان، أو الطيور، أو المخلوقات الأخرى. إنه جعل للإنسان ساقين، وجعل في قمّة جسده رأساً لينظر إلى ما حوله، ولم يجعله يدبّ على أربع ليجمع قوّته مثل الحيوانات؛ وهب الخالق للإنسان ذراعين ويدين ليخدما رأسه، ومنحه أنفاً ليستروح بالأريج، منحه عينين- أيضاً- ليُلمّ بما حوله، منحه جفنين لحماية العينين، وأهداباً لمنع احتكاك الجفنين، وحاجبين لصدّ العرق المتصبّب من الجبهة، واللسان للتواصل وللتفاهم وللعمل معاً. أليس هذا يثبت حبّ الله للإنسان؟ أليس واجباً عليك ردّ الجميل لِمَن أحَبّك؟

فقط، توقَّفْ وفكِّرْ: الشمس تمتصّ الرطوبة، وتعيدها سُحُباً لتنهمر مطراً على الزرع، والعشب والأزهار التي تُبهج عين الإنسان وقلبه، كلّ أنواع الفاكهة تنضج لتغذّي الحياة على الأرض، الأنهار التي تصبّ في البحار، والبحيرات تطفئ عطش الطيور والحيوانات. الأرض التي تمنح الخبز والقطن والقُنّب والفاكهة والتوت، تكمن في أحشائها المعادن والثروات. الطيور تمنح الإنسان الريش والبَيض واللحم، المواشي توفّر الحليب والصوف والجلد. المياه تهب السمك وسمك الكَفْيار، فيما يتكفّل النحل

بالعسل والشمع، والحرير يأتي من دودة القزّ.

ليس ثمة أحد في الدنيا يقول عن هذه الخيرات: «كلّ هذا لي». كل هذه الخيرات للإنسانية. المعامل والآلات صُنعت بجهد عمال مهرة، وهي- أيضاً- مُعَدّة لخدمة البشر.

أليس هذا دليلاً على حبّ العليّ القدير للإنسان؟ أليس من واجب الإنسان مكافأة الحبّ بالحبّ؟

من أجل ألا يفنى الجنس البشري فإن الصنف الحيواني خالٍ من الجشع المطلق؛ ومن ثَمَّ، فليس ثمّة ضرر للأجيال اللاحقة، الشيء ذاته جعله الله للإنسان، طامعاً وجشعاً، ثم وقاه من الحيوانات.

الحيوانات تستخدم قوّتها وسرعتها، لاجئةً في قاع المياه، وعالياً عند الجبال، وفي أعماق الغابات؛ كلّ كائن حَيّ لديه الحافز على التكاثر بغريزة البقاء والعناية بنشئه. في تخطيط الأشياء ونظامها لا يتساوى الحيوان بالإنسان، بل يجب أن يزوّد الحيوان الإنسان بالغذاء، كل هذا يتجلّى في فضل الله وعدالته لنا.

يجب ألّا نتوقَّف عن التفكير بأن الرحمة والعدالة من وصايا الشريعة. كوننا مسلمين ومؤمنين بالله، ألا يعني أن نتّبع وصاياه دون وهن؟ هل نحتاج مزيداً من الأدلّة، التي هي واضحة، على

عنايـة اللـه واهتمامـه بنـا؟

نريـد أن نـرى عمـل الخيـر مـن النـاس، ولكننـا لا نحمّـل أنفسـنا عبء الاهتمـام بجيراننـا. أليـس ذلـك إثماً؟

الـذي يسـمح بالشـرّ، ولا يقاومـه، لا يُعَـدّ مسـلماً. فـي أحـس أحوالـه هـو مسـلم فاتـر، تعـوزه الحماسـة.

أيـن يتجلّـى العلـيّ القديـر؟ كثيـرون منّـا لا يعرفـون. لـم أرَ مسـلماً مسـتغرقاً مفكّـراً فـي أحاديـث النبـي: يتأمّـل فـي صنـع اللـه أو يتبـع ابتهـال المصلّـي: أحبـب اللـه يحببْـك. أحسـن إلـى النـاس، ذلـك أن اللـه يحـبّ المحسـنين. المؤمـن الـذي ينجـز عملـه مثـواه الجنـة.

القـرآن يزخـر بآيـات تحـثّ علـى الحـبّ والإحسـان وعمـل الخيـر، مـع ذلـك لا أحـد منّـا ينظـر، بعمـق، فـي معنـى تلـك الآيـات؛ تعوزنـا القـدرة والمعرفـة الكافيـة لفهـم هـذه الحقائـق.

«ثمّـة أنـاس يؤمنـون باللـه، ويحسـبون أنفسـهم يكرّسـون عبادتهـم للـه بعمـل الخيـر للآخريـن، فليعلمـوا أن اللـه لا يحـبّ هـؤلاء المعلوليـن».

الإسـلام الـذي أتـى بـه النبـي- عليـه الصـلاة والسـلام- يعلّمنـا أن «الظالـم لا ضميـر لـه، والـذي لا ضميـر لـه، لا إيمـان لـه»؛ مـن ثَـمّ نحـن نـرى أن الإيمـان لا يأتـي مـن تلقـاء نفسـه، بـل يولـد

مـن العـدل والعمـل الصالـح، لكـن العـدل والفضيلـة لا تُكْتسـبان بالصـلاة والعبـادة العمياء فقـط. وهنـا، لابـدّ مـن هـذا البرهـان: تـرى المسـلمين متحمِّسـين فـي صلاتهـم، وصارميـن فـي صومهـم، لكـن هـذا لا يكفـي. الاسـتقامة هـي أمّ العمـل الصالـح. الضميـر والسـمعة يأتيـان مـن الاسـتقامة. رُبَّ امـرئٍ يتوقّـف ويفكّـر مليّـاً، ويسـأل نفسـه: «لمـاذا أستحسـن العمـل الصالـح وأطريـه، بينمـا لا أشـارك فيـه؟» ألا يـدلّ ذلـك علـى الاسـتقامة والصـدق؟ أليـس ذلـك بدايـة العمـل الصالـح؟، والمـرء بالآخريـن، أليـس تعبيـراً عـن التعلّـق بالخالـق؟

الرغبـة فـي عمـل الخيـر تولـد مـع القـدرة علـى الرضـى بالقليـل. لا تفقـد حسّ الاسـتقامة، ولاتـكلّ مـن فعـل الخيـر. الإيمـان والإنسـانية وحـبّ الرحمـة ليسـوا أقـلّ مـن الاسـتقامة. كمـا يعلِّمنـا الصوفـي الهـادي أن خطيئـة واحـدة تولِّـد مئـاتٍ غيرهـا.

نتصـوّر العليّ القديـر، فـي عقولنـا، أنـه كلّـي العلـم والرحمـة حقيقـةً. لـو أن سـمات المعرفـة والشـفقة والاسـتقامة ظاهـرة عنـدك، هـذا يعني أنـك باحـث عـن التعليـم، وأنـك مسـلم حقيقـي وموهـوب للإنسـانية. مـن الشـائع أن الشـهامة والنبـل يتجسّـدان في ثـلاث مناقـب: الصدق، والنيّـة الحسـنة، والعقل السـليم.

الصـدق تجسـيد للاسـتقامة والنيّـة الحسـنة والرحمـة، والعقـل- كمـا نعلـم- مـن سـمات المعرفـة. هـذه السـجايا، ولـو كانـت صغيـرة فـي

المقارنـة، إلا أنهـا خاصّـة بالإنسـان، وهـي عملـه، فلْيكافـح فـي ضبطهـا وفـي أعمـال الخيـر، ويتذكَّرهـا، ويحفظهـا فـي قلبـه. ولا يمكـن تحقيـق ذلـك إلا بالرغبـة الخالصـة، وبالجهـد المتواصـل الـذي لا يـكلّ صاحبـه. يمتلـك النبـي السـجايا الثـلاث السـابقة، وكذلـك الأوليـاء والعلمـاء والمسـلمون الخلّـص؛ تلـك الخصـال مُعَـدّة لخدمـة العليّ القديـر، لقـد بشّـر بهـا النبـي، واعتنقهـا الأوليـاء بحـبّ، بـل إن حـبّ الأوليـاء منصـبّ، فقـط، علـى حيـاة الخلـود وراء القبـر. مـع ذلـك، فقـد انصرفـوا عـن لهـو الدنيـا ومباهجهـا. علـى كلّ حـال، العلمـاء يفكّـرون بالحيـاة فـي هـذه الدنيـا، ومهتمّـون بهـا. أحـكام الأوليـاء والعلمـاء متعارضـة، ولـو أنهـم ليسـوا بعيديـن فـي نظرتهـم، وكلّ منهـم يدعـم تعاليـم اللـه. ولكـن، أليسـت كلّ مجادلـة تنتهـي برضـى متبـادَل؟

مثـل طبيعـة الإنسـان، المعرفـة والعقـل، يسـند أحدهمـا الآخـر مـن دون عنـف. إنهمـا ينفـران مـن الازدواجيـة، إنهمـا يعلِّماننـا الرحمـة والصـدق وعمـل الخيـر، ومـا شـابه ذلـك، يعلِّماننـا الشـفقة.

أعتقـد أن الأوليـاء والعلمـاء يبحثـون عـن اليقيـن بالشـكّ، فقـط، لإرضـاء غرورهـم. قـد يختـار البشـر المذاهـب التـي يحـثّ أصحابهـا، عـن طريـق الوعـظ الروحـي، علـى التشـدُّد الصـارم والتواضـع الكامـل اللذيـن مَـنْ شـأنهما أن يذهبـا بالعالـم إلـى الخـراب والفسـاد. آنئـذ،

مـن يرعـي القطعـان، ويصـدّ الأعـداء، ويحيـك الملابـس، ويبـذر القمـح، وينتـزع الثـروة مـن أحشـاء الأرض؟ ألا يعنـي ذلـك أننـا نتعـرّض، بسـلوكنا الفـظّ والجاحـد هـذا، للخطـر، وذلـك بإنكارنـا للخيـرات الممنوحـة لنـا مـن العلـيّ القديـر؟

هـؤلاء الذيـن اختـاروا هـذا الطريـق، ربَّمـا يكونـون محكوميـن بالـزوال، أو يكونـون فريسـة سـهلة للكفّـار، والضعـف داخلهـم يتركهـم فـي طريـق الخـزي. إن كان هـذا الطريـق مقـدّراً لنصـف المسـلمين، فهنـا ينشـأ هـذا السـؤال: هـل ثمّـة- بالمقابـل- شـيء يصـحّ للنصـف الآخـر، مثـل الحقيقـة؟ يجـب أن تكـون الحقيقـة لـكلّ إنسـان. هـل ثمـة انتقـاء فـي الحقيقـة، أو انتقـاء فـي الاسـتقامة؟ إن كان ذلـك كذلـك، فليـس ثمـة حيـاة للنـاس مطلقـاً. بالنسـبة إلـى الحيـاة، الأهـمّ هـو المطلـق، ليـس ثمّـة كمـال بـدون الحيـاة. عندهـا، كلّ الأوليـاء لـن يـزدروا الأعمـال الخيّـرة فـي العالـم. نعـرف أنـه ثمّـة ثلاثـة مـن أقـرب أنصـار النبـي إليـه، وهـم مشـهورون بثرائهـم: عثمـان، وعبدالرحمن بن عـوف، وسـعد بـن أبـي وقّـاص. لعلنـا نفسّـر صرامـة تقشُّـف الأوليـاء بنقـص إيمانهـم بمقدرتهـم، بخشـيتهم اللـه مـن مغريـات متـاع الدنيـا ولهوهـا، أو- ربَّمـا- هـم، بنكرانهـم لذواتهـم، إنمـا يقدّمـون المثـال لثَنْـي النـاس عـن الجشـع، والتخلّـي عـن هـوى الشـيطان وعـن حـبّ الـذات، أو اختيـار صـراط الحـبّ والإحسـان! إذا كان كلّ ذلـك لحـثّ النـاس علـى الحـبّ فحسـب، فـإن تضحيتهـم غيـر مبـرَّرة، هـذا النهـج

خطأ وخطير.

فقط، الأشخاص الذين يلتزمون بالإيمان المطلق، والذين يتمتّعون بروح قويّة، والذين يتوافرون على معرفة كبيرة، ويمتلكون إرادة صلبة، يرون ضوء الحقيقة. من المستحيل- تقريباً- أن تجد هذه الخصال عند شخص واحد، أو إنهم بإحرازهم المزعوم لتلك الخصال، ربّما يتحوّلون إلى خُبثاء أو مشعوذين أو أفّاكين.

الرغبة في أن يميّز المرء نفسه أو يتعالى عن الجميع تفسد طبيعته الإنسانية. الإنسان الجهول الذي يسلك مذهب التشدد زاعماً أنها معرفة، إنما هو، بتلك الوسيلة، يعترف بفجوره. المفكّر والعالم ينتهجان السبيل نفسه، ولكن، بطريقة أخرى، للمعرفة.

المعرفة المادّية عن العالم إنما تنتقل إلينا عن قاعدة سلوكية أخلاقية، المعلِّمون لهذه القاعدة ندعوهم علماء.

ليس ثمّة خلق دون سبب. ربّما يكون العلماء ممسوسين بتوقهم لسبر أغوار كينونة الله، التي هي غير محرّمة على أحد، أو- ربّما- يسعون إلى المطلق في حبّ الله! إلا أنه من المناسب الحديث عن مثل هذا الحبّ إذا كان المرء تعوزه معرفة الله، مع ذلك فإن الحبّ نتاج المعرفة الواضحة، والإيمان المطلق، والحسّ الأخلاقي بالعرفان تجاه الله؛ لأنه خلق الإنسان بكثير

من الحبّ، ومنحه القدرة على الحبّ والرحمة، هذا، فقط، ما نسمّيه الحبّ الخالص للعليّ القدير.

فقط، هؤلاء الباحثون عن معرفة الله، المتنوِّرون، والذين ينظرون إلى السبب أو (المسبّب) الأوَّل، إلى ظاهرة الأشياء المدركة، هؤلاء هم الذين يستحقّون لقب (علماء).

إنهم يبحثون عن الحقيقة والاستقامة، والصلاح للإنسانية، ذلك أنه ليس ثمّة متعة تساوي متعة بحثهم هذا، ليس ثمّة مثل هؤلاء المفكِّرين ممّن يسلكون الطريق الصحيح. العالم بأسره يتّجه إلى الدمار والخراب. هؤلاء العلماء الخلّص هم العمود الفقري لكلّ أعمال الإنسانية: يضعون أفكارهم في خدمة كلّ شيء على الأرض، نشاطهم موجّه لحياة أفضل؛ ذلك- كما يقال- أن الحياة الدنيا هي الفلاح من أجل الحياة الآخرة.

ليس كل عالم حكيماً، لكنّ كلَّ حكيم هو عالم.

الإيمان التقليدي يُكتسب بمساعدة من التعليم الأخلاقي للعقول المثقّفة، غير أن التنوير الذي يأتي من الحكيم يتحوّل إلى إيمان صادق. هذا يتحقّق عن طريق الحكماء الذين فهموا المعنى السامي للإسلام، طلّاب المعرفة الدنيوية، على كلٍّ، لا يعرفون مبادئ الدين، بالرغم من نجاحهم، في أثناء بحثهم عن الحقيقة،

في فكّ ألغاز الكون وظهور الإنسان. فيما يتعلّق بالشروط السبعة للشريعة هم قادرون على إدراك الله فقط، إلا أنهم لا يمكنهم إخبار عباد الله عن أعداء الله. رغم أنهم لا يمكن أن يكونوا رُعاتنا الروحيين، إلّا أنهم يستحقّون عرفاننا لهم بالجميل، أو- كما قال النبي في الحديث الشريف- : خير الناس أنفعهم الناس». هؤلاء الرجال لا يعرفون النوم أو الاستكانة أو اللهو؛ إنهم يثابرون على اكتشاف كل ما يفيد الإنسانية دون تعب أو كلل. لقد أعطوا للإنسانية الكهرباء، ومكّنوا الإنسان من الاتّصال بأخيه الإنسان عبر مسافات هائلة، لقد أخضعوا الماء والنار لإنجاز أعمال ضخمة لا يقدر عليها آلاف الرجال. إنهم يحسنون توظيف العقل البشري، لقد علمونا التمييز مابين الخير والشر، ونحن- بالتأكيد- مدينون لهم بكثير من الأشياء.

في وقتنا الحاضر، الملالي يقفون ضدّ تعليم الناس، والحقيقة: هم يعلمون- أيضاً- أن جهل رجال الدين أو نواياهم السيِّئة تكمن في قولهم إن الإنسان ميّال بطبعه إلى الخطيئة. العديد من تلاميذهم تعلّم بعض الصلوات، بالعربية أو بالفارسية، ويرون أنفسهم قادرين على الدخول في نقاش وجدال، بكبرياء كاملة؛ بدلاً من العمل الصالح، يسيئون للناس، ويقودونهم إلى الضلال بلجوئهم إلى الصخب والتبجّح الفارغ. بعضهم يسيء، ليس عن نيّة خبيثة، بل امتثالاً لغريزة طبيعية. إنه لَمِن دواعي السرور أن

نـرى بعضـاً منهـم يلتفتـون إلـى حكمـة النصيحـة بالعـودة إلـى ثنايـا الضميـر لديهـم، لكـن، هـل تقولـون عـن شـخص يعيـق الحقيقـة إنـه صاحـب ضميـر؟ الغـرور يفسـد إدراك المـرء. إن كانـت الحقيقـة مازالـت تدعـى الحقيقـة، والحقيقـة هـي اللـه، فيَحسُـن بالمـرء ألّا يعارضهـا، وليحـاول تفهُّـم ذلـك جيـداً؛ ذلـك أن الضـلال يقـود إلـى مخاطـر النفـور مـن الديـن.

يقـول اللـه تعالـى، فـي كتابـه العزيـز: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّـكَ كَأَلْـفِ سَـنَةٍ مِمَّـا تَعُـدُّونَ» (سـورة الحـج) والسـؤال: كـم مـن المصلّيـن سـيكونون هنـاك ذاك اليـوم؟ العالمـون سـيعرفون ذاك اليـوم.

ألا تدلّنـا أحاديـث النبـي علـى أن شـريعة الديـن ومبادئـه سـتتغيّر إلـى شـكل آخـر، مـع الزمـن؟

فـي الزمـن الحاضـر، تعليـم المـدارس ميئـوس منـه، وهـو خـارج الزمـن؛ ممـا يـدلّ، لا علـى عقمهـا فحسـب، بـل علـى أذاهـا أيضـاً. وفقـاً لذلـك، فُتحـت مـدارس جديـدة فـي تركيـا فـي موازاة اللاهـوت والعسـكرة وعلـوم أخـرى، شـبابنا أنفقـوا سـنوات عديـدة فـي حفـظ فـارغ، عـن ظهـر قلـب، فـي المـدارس، ليصبحـوا جهلـة، وغيـر عقلانييـن، وعاجزيـن عـن العمـل، وسيعيشـون عـن طريـق الحيلـة والخـداع. تعاليـم الملالـي لا تجلـب غيـر الألـم.

جمـال الكـون المخلـوق يعظّـم العقـل البشـري. يحـدث أن يجـد المـرء نفسـه فـي عَـوَز وحاجـة، سـيفقد طبيعتـه الإنسـانية ويتحـوّل إلـى حيـوان. ليسـت لديـه الرغبـة فـي فهـم العلـوم وفـي التعلّـم، هـذه الجهالـة يدينهـا القـرآن. ثمّـة عالَـم مـن الاختـلاف بيـن الثـروة التـي تقـود إلـى القـوّة، وبيـن تكديسـها؛ قصـدَ تلبيـة الحاجـة، دون اللجـوء إلـى الآخريـن. يجـب ألّا نبحـث عـن المعرفـة قصـدَ الربـح، يجـب توظيفهـا لكسـب المعرفـة. الفـنّ كنـز لا ينضـب، وليـس ثمّـة أنبـل مِـن تعلُّمـه، يجـب أن تكـون المعرفـة فـي خدمـة الاسـتقامة وتكييفهـا بمـا يتطلّبـه ناموس الديـن. يجـب علـى المـرء أن يُكْبـر أعمـال الآخريـن الخيّـرة، بـل يعمـل هـو نفسـه الخيـر.

بالنسـبة إلـى أقـوال الملالـي، أودّ أن أحذركـم مـن هـؤلاء، أصحـاب المرتبـة الدينيـة الدنيـا: تعاليمهـم زائفـة ومحفوفـة بالمخاطـر. الكثيـر منهـم جهلـة، ولا يفقهـون شـيئاً فـي الشـريعة، رغـم اختيارهـم هـذا الطريـق. إنهـم يحاولـون تعليـم الآخريـن، فـي حقـد، القليـل مـن معرفتهـم، تعاليمهـم الدينيـة المضللـة لا تضـرّ فحسـب، إنمـا هـي زائفـة. إنهـم يجـدون مـن يسـاندهم مـن الأغبيـاء، وكلامهـم مزيَّـف؛ علاماتهـم فـي التعليـم صلـوات مصحوبـة بسـبحة، وعمامـة، ولا شـيء غيـر ذلـك.

أطفالـي الأعـزّاء، يجـب أن تعرفـوا أن الطريـق إلـى الله غيـر نهائـي،

وليس مقصوراً على أحد. الذي يعزم على اتّباع هذا الطريق يُعَدّ مسلماً حقيقياً. ولكن، إن كان غرضك هو كسب الثروة فاعلم أن هذه العقلية الضيّقة لا تقود إلى الله. إذا عزمت على مشاركة الآخرين مالك وقطعانك وتعليمك وأشياء أخرى خيّرة، فأنت في طريق الصواب نحو العليّ القدير، الطريق الذي لا نهاية له.

هؤلاء الذين اختاروا هذا الطريق يُعَدّون عباداً صالحين، الطريق الذي ليس ثمة ما هو أفضل منه، مقارنةً ببعض الناس، ممّن همّهم إظهار أنفسهم، بعنايتهم بملابسهم وطريقة مشيهم، يعدّون أفعالهم هذه جديرة بالثناء، مثل هؤلاء توّاقون للتباهي، كما لو أنهم في سوق، مثيرون حسد البلهاء الذين تكمن عقولهم في عيونهم. انظر إليهم: بعضهم تأكله الغيرة حسداً، في حين يحاول آخرون تقليدهم. من يكسب من هذا كلّه؟ كم من الجهد ينفقه هؤلاء لمجرّد التأثير في الآخرين، بمظهرهم؟ غير أن فضيلة المرء لا تكمن في مظهره، بل في جوهر روحه؛ ذلك أن الله يميّز الناس بهذه المنقبة. هل هؤلاء المتعصّبون يضيفون مثقال ذَرّة إلى عقولهم؟ العقل البشري يتحسَّن إلى ما لا نهاية، ولا يكلّ من حبّ الخير والعمل الصالح.

خلق الله الكون ببراعة مطلقة، ليستطيع النموّ والتجدُّد. من واجبنا المقدَّس أن ننمّي عدد أصدقائنا؛ وهذا يتوقَّف على عملنا

الصالح وطيبة القلب بيننا، شيء يستدعي الاستجابة للودّ- على الأقلّ- لا تأمُّل الشر عند الآخرين، أن لا تلوكهم بكلماتك أو أفعالك. في هذا السبيل ثمّة عدّة طرق لتهذيب النفس: أولاً، صون شرف المرء حتى في أعظم المحن. ثانياً، إطراؤك لنفسك والثناء على أعمالك الخيّرة، فقط، هو ما يؤذيك. ثالثاً، الحقد يُفسد احترام الآخرين، ويسبّب الإذلال الذي يولّد الحقد. التفاخر المتكرِّر، له عواقب وخيمة، ومن شأنه إثارة الحسد، والحسد يعقبه مزيد من الحسد. انعدام هذه الرذائل يجلب السكينة إلى روح المرء، والنفس التي تنعم بالسلام، يبدأ الطموح عندها بالنشوء. ثمّة ثلاثة أشياء من شأنها جلب الخزي للجنس البشري، أشياء يجب أن تتجنَّبها، هي: الجهل، والكسل، والشرّ.

الجهل، الذي هو نقص في المعرفة. في غياب المعرفة لا يمكن تحقيق شيء؛ فنقص المعرفة يجعل الإنسان لا يختلف عن الحيوان. الكسل أسوأ أعداء الفنون. عدم المقدرة وفقدان إرادة القوّة والوقاحة والفقر، كلّ هذا وليد الكسل.

الضعف عدوّ للإنسان: بفعلك الشرّ للآخرين، تبعد نفسك عن جنسك، وتصبح مثل الحيوانات الجامحة.

الترياق لهذه الرذائل هو في حبّ الناس، والرغبة في العمل الصالح، وثبات الروح، والحصافة، والحكمة، وسعة المعرفة.

وجّهْ كلّ معرفتك باتّجاه صراط الحقّ (عزّ وجلّ)، الذي لم يبخل في خلق التوافق المحكم للكون، أنت- أيضاً- يجب أن تحمل على عاتقك مزيداً من العمل المثمر، بقصد خلّاق.

كل ماخلقه الله له هدفه؛ فاكهة عملك في صنع الخير للناس، أما غير ذلك فهو هراء، وإيمانك لا طائل من ورائه. ثمّة فكرة شائعة تقول إن خلق الله لم يوجدوا دون متاعب، وليس ثمة شيء دون هدف. كل شيء له قصد، وهدف، وسبب. يجب على المرء التوّاق إلى المعرفة أن يضع نصب عينيه أن عمله يجب أن يكون من أجل هدف.

النبيّ- عليه صلوات الله- ترك لنا هذا الحديث: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى». الآن: أنت تتهيّأ للوضوء من أجل، الصلاة، وعزمت على الصوم. هذا جيد، أليس من الإثم أن تهتمّ بالمظهر الخارجي، فقط، في تقيّدك بالطقوس؟ إن كانت روحك طاهرة فستنعكس هذه الطقوس على حياتك، المحافظة على المظاهر الخارجية فعل حسن، لأنه يزيد من عظمة إيمانك. أليس، لهذا السبب، قال الحكماء إنه ليس ثمة إلا إيمان واحد، مبجّل بطول الأناة، وبدون هذا التقيُّد قد تلطّخ إيمانك وتحكم عليه بالهلاك. يقال: مخَافةَ الجهل، يُهتَمّ بالطقوس الخارجية وحدها. في هذه الحالة، هل ننسى الهدف الأسمى، وهو

الإيمان؟ الاقتناع بأن جهل المرء بالفرق بين الطقوس الخارجية والطقوس الداخلية، والالتزام، فقط، بالطقوس الخارجية يجعل المرء مسلماً، هو كلام غير مقنع.

قد تكون الطقوس أداة تنبيه للإيمان، لكن الأهمّ أنه لا يعفي من أداء المهمّة الأثيرة.

كيف يكون الإيمان دون اليقظة الثابتة؟

أليست حماية الإيمان وصونه ورعايته كونه الجوهر النفسي، (حمايته نقّياً وسليماً) هي الهدف الأسمى؟

أنت، يامن تتعامى عن المعنى العميق لعمل الشعائر، وإيماءاتها، انتبه! ثمّة جزء أساسي جدّاً في الصلاة؛ ذلك أنه، قبل شروعك في الصلاة، يجب أن تتوضّأ. هذا بعد أن تُفرغ من بدنك القاذورات. تذكَّر ذلك! في نهاية الوضوء يجب أن تمسح بيديك المبتلَّتين على قدميك: بعض هذه الشعائر ذات مغزًى رمزي.

بعد الاستفراغ، تتوضّأ بغسلك الأطراف المرئية للآخرين. هذا- بالتأكيد- ليس مهمّاً للغرباء، لكن هذه الأفعال توضِّح للناس أن روحك طاهرة، وأن ظاهرك مطابق لباطنك. في حالة هذه الطهارة الكاملة وسلامة العقل، تواصل صلاتك. الصلاة هي تعويذة، المسح بأصابعك المبلولة على وجهك وقدميك يعني أن روحك

طاهـرة.

أن تبـدأ صلاتـك، وتكبّـر برفع يديـك حتـى أذنيـك، ليـس معنـاه أنـك تتحـدّى اللـه، عَـزّ وجَـلّ: هـذه الحركـة لتشـهد بـأن لا إلـه إلا اللـه. وهـي دليـل لحماسـك فـي التضـرع لـه عَـزّ وجَـلّ: «أسـتعين بـك مـن الباطـل».

ركوعـك، ليـس معنـاه انحنـاء العبـد للحاكـم، ليـس كمـا يفعـل رجـل مـن العامّـة أمـام الملـك. بـل أنـت تتوجّـه إلـى القِبلـة لأنهـا بيـت اللـه سـبحانه، وليـس ثمّـة، علـى الأرض، أكثـر مقامـاً للـه- سـبحانه- مـن القبلـة، بأمـل أن يسـتجيب اللـه العلـيّ القديـر.

أن تبـدأ بالفاتحـة فـي صلاتـك، لهـا المغـزى الكبيـر. وركوعـك مسـتنداً علـى ركبتيـك إشـارة علـى أن المسـلم يظهـر تضرُّعـه للـه.

أوّل سـجودك، عندمـا تلمـس بجبهتـك الأرض، دلالـة علـى أن الإنسـان مـن تـراب، والسـجدة الثانيـة تعنـي: وللتـراب نعـود. رفعـك لوجهـك إلـى السـماء إشـارة إلـى النشـور بعـد المـوت.

تنهـي صلاتـك بالسـلام علـى اللـه عـز وجـل، ووتتمنّـى السـلام والوحـدة والازدهـار للمسـلمين.

الآن، ماذا تعلَّمنا من هذا القول؟

39

نعـم، أسـلافنا كانـوا أقـلّ شـأناً، بالنسـبة إلـى الجيـل الحاضـر، فـي الكياسـة والبراعـة وحسـن التدبيـر. مـع ذلـك كانـوا يملكـون فضيلتيـن لا نملكهمـا نحـن، وتناسـيناهما بفعـل الزمـن. هـل لدينـا العـزم علـى بـذل أقصـى جهـد للحفـاظ علـى تلـك الفضائـل القديمـة، إلـى جـوار اكتسـاب مزايـا وصفـات جديـدة؟ يجـب أن نكـون مسـاوين لباقـي الأمـم، لكـن، عندمـا تنقصنـا العزيمـة والاسـتعداد الشـخصي، فإننـا، بذلـك، نعطـي مجـالاً للصفـات الشـيطانية، أكثـر مـن الصفـات الإنسـانية، فـي بلـورة أنفسـنا. هـذه واحـدة مـن الأسـباب التـي نفتقدهـا عندنـا. مـا تلـك الفضائـل؟

فـي الأزمنـة القديمـة، كان ثمّـة مـا يُعـرف (زعيـم القبيلـة) وحكيـم القبيلـة أو الأقـدم فـي القبيلـة، كان هـؤلاء يفضّـون المنازعـات، ويضبطـون مسـار المجتمـع، النـاس يديـرون شـؤونهم، بطريقـة أو بأخـرى، لا يطعنـون فـي أحكامهـم، أو يسـعون بالشـكوى بيـن هـذا

وذاك، من أصحاب المقام الرفيع. نقول: «ضع العصا، في يدك وأنت تستعدّ للنقاش»، أو «إذا احتكم كل شخص بنفسه لنفسه فلن يعيش الناس معاً، حتى في أرض لا حدود لها، عندما يكون للمجتمع زعيم فلن يحترق أحد، حتى مع وجود النار». بالتسليم بهذه الحقيقة تهتدي الأنفس، بصلاتها، إلى ربّها. الإجماع على المنتخَب من الجميع وتأييده في ما تعهَّد به للناس يفرضان عليه التحلّي بالصفات الفاضلة؛ فهو بذلك يكسب احترام الناس، ويجعلهم ينتبهون إلى كلامه ويطيعونه، دون تقصير، حتى ذوو السلطة لا ينتهكون الالتزام المعمَّم على الجميع. كيف يفشل مجتمع يتحلّى بهذه الصفات، والجميع أخوة، والثروة في متناول اليد؟

نقطة أخرى: قومنا يعتزّون بالوحدة، لأنها قدس الأقداس، إذا احتاج أحد المساعدة يستحضر أسماء الأسلاف، فيهبّ لنجدته الجميع متناسين خلافاتهم في سبيل تقديم يد العون، مستعدّين للتضحيات والتنازلات، أو- كما يقول الناس-: «الذي لا يغفر خطيئة جاره سيتأذّى من الغريب». «قد يتشاجر الأخوة، لكن، لا يتخلّى أحدهم عن الآخر». (لو تنازع ستّة أشخاص فسيفقدون ما في أيديهم، لكن، إن اتَّفق أربعة فستحلّ بينهم رحمة الله». «الذي يسعى في الطريق الصحيح سيجد الكنوز، لكن الذي يسعى وراء المشاكل لن يظفر بغير البلاء».

أين الروح النبيلة للمجتمع؟، وأين الحرص على الشرف؟

كان ثمة من يسوّغون إراقة الدم، بضمير حَيّ وشجاعة. أين هم الآن، حيث الصداقة لا علاقة لها بالودّ، بل بخيانة الأمانة والغدر.

ليس حبّاً في الحقيقة تنشأ العداوة، بل بسبب العجز عن العيش بسلام.

40

أيها السادة المحترمون، هذا ما أودّ أن أسألكم إياه:

كيف يتأتّى ألّا نتحدَّث، بكآبة، عن الموت، في حين لا تجد أحداً جديراً بالحياة بين الأحياء؟

لماذا الشجار بين الأجيال الأقدم والأجيال الأحدث، ومع معاصريهم، أيضاً؟

إن حدث أن سافر أحدنا إلى أماكن أجنبية، فإننا نبدأ في إظهار الحبّ له كأخ، وعندما يعود نُكرهه على اجتنابنا، لماذا؟

لماذا نرى بعض الناس يُطرون رجلاً خيِّراً من قبيلة أخرى، ويضعون أنفسهم في خدمته، في حين يتجاهلون رجلاً خيِّراً من قومهم، ولو بَزَّ الغريب في الحكمة والنبل؟

حين نكون في أرض غريبة نشيد بقريتنا، ونعلي من شأنها إلى

السموات العليا، وعند عودتنا إليها نشيد بالأرض الغريبة. كيف هذا؟

لماذا يظهر الآباء حبّاً لأبنائهم وعناية بهم، وهم أطفال، ولكن، تبرد هذه العاطفة عندما يكبرون؟

لماذا نجد صعوبة في جمع أقاربنا في فرح أو ترح، ولكن، يكونون جسداً واحداً في أوّل هَبّة للسرقة أو لقطع الطريق؟

لماذا يغتاظ قريبك إن كسب جوادك السباق؟

في الأيام الخوالي، كان الناس يذكرون، بخير، وإلى آخر أيامهم، صنيع شخص، ولو كان العمل لمرّة واحدة فقط، لكن، الآن، سرعان ما ينسى الناس الأعمال الخيِّرة. لماذا؟

لماذا لا يخجل ابن البيّ من السرقة إن جَنَت عليه الأيام، ولكنه يعدّها خزياً إن خدم (بيْ) آخر؟

لماذا لا يقدر اثنان من الرجال الجيدين ومن العائلة نفسها على إقامة مصادقة فيما بينهم، في حين تجمع الصداقة اثنين من الأوغاد؟

لماذا ينقلب عليك صديق، منحْتَه جواداً مطهَّماً، بمجرّد حصوله على مُهرْ من عدوّ لك؟

لماذا لا يقدِّر المرء صداقة مستمرّة ومثالية مع آخر، ويكون على استعداد أن يرضخ لعدوّ قَدَّمَ له خدمة سابقة؟

لماذا لا يتمنّى الكثيرون منّا الخير للأصدقاء، وإذا ضحك الحظّ لواحد من صديقين يصبحان ألدَّ الأعداء؟

لماذا يبحث الناس عن شخص ينصحهم، في حين يتجنّبون من يعرفون أنه النصوح، ويعرفهم؟

لماذا يتصرّف بعض الضيوف وكأنهم جلبوا معهم كلّ ماشيتهم، ولكن، عندما تكون أنت ضيفهم يتظاهرون بأن ماشيتك ليست معك؟

يتوق الناس إلى السلام والسكينة، لكن، سرعان ما يسأمونها، لماذا يحدث هذا على الأرض؟

لماذا يُحكَم شعبنا من قِبَل الأذكياء؟ ولماذا هم فقراء في الحكم؟

لماذا تكون الزوجات الجديدات سليطات؟ لماذا الأنذال وقحون؟ لماذا بعض الفقراء مغرورون؟

لماذا يرى الناسُ من يعيش في سلام، ويضبط نفسه، ضعيفاً، في حين يرون المفسد والمتبجِّح جريئاً وشجاعاً؟

لمـاذا الـكازاخ لا يصغـون إلـى الأقـوال الصالحـة، وليـس لديهـم وقـت لهـا، فـي حيـن هـم علـى اسـتعداد أن يسـمعوا كلّ أنـواع القيـل والقـال، مـن قـذارة وقـذف، ولا يعرضـون عنهـا حتـى يسـمعوها إلـى آخرهـا، حتـى لـو كان ذلـك علـى حسـاب تدهـور شـؤونهم فـي تـرك الأقـوال الصالحـة، مـن أجـل سـماع تلـك القـاذورات؟

41

أيّ شخص يخطِّط لتعليم الكازاخ وإصلاحهم يجب أن يملك ميزتين:

في الأولى، يجب عليه استخدام القوّة القصوى والنفوذ الكبير لتمكينه من إثارة الخوف لدى البالغين، لجعلهم يرسلون أبناءهم إلى المدرسة لتعلُّم صنوف المعرفة، مع تحمُّلهم النفقات. ويكفي البنات تعلُّم دينهم الإسلامي، على الأقل كي يصرن قويّات في دينهم. في هذه الحالة، عندما يشيخ الوالدان يكون الجيل الجديد قد نهج الطريق القويم.

وفي الثانية، يجب أن يملك ثروة ضخمة، كي يرشو الآباء، من أجل إرسال أبنائهم إلى المدرسة، كما أسلفنا.

في هذه الأيام، ليس ثمّة من يمتلك تلك القوّة المخيفة، أو ما يكفي من الثروة، حتى يكسب المبتغى من الآباء.

إنـه مـن المستحيل حـثّ الكازاخـي علـى شـيء أو إقناعـه بشـيء، إلا إذا أَخَفْتـه أو رَشَـوْته.

لقـد ورث الجهـل عـن أسـلافه، وتشـرَّبه مـع حليـب أمّـه، فضـرب نخاعـه، وقتـل كلّ معنـى للإنسـانية لديـه، مثـل هـؤلاء، عندمـا يجتمعـون لا يمكنهـم فعـل شـيء غيـر التكشـيرات الغريبـة والتصنُّـع فـي السـلوك، يهمسـون، ويتفوّهـون بتلميحـات غامضـة. حتـى عندمـا يفكّـرون لا يركّـزون علـى فكـرة محـدّدة، وإذا كلّمتهـم لا ينتبهـون إليـك، بـل يحدّقـون، هنـا وهنـاك.

أفكارهم مشتّتة.

كيف نعيش؟

كيف سنصبح؟

42

الكسل أحد الأسباب التي تقود الناس إلى الرذيلة. إذا اشتغل الكازاخي في الأرض، أو اقتحم التجارة، هل يعيش حياة التفاهة؟ إنه بدل ذلك، يمتطي جواداً استلفه من أحد ما، ويتنقل من قرية إلى أخرى ناشراً الإشاعات والقيل والقال بمكر ونفاق، يقود الناس إلى الضلال، أو يقع هو نفسه تحت سطوة الأوغاد، ينجرف معهم ولا يفعل شيئاً. لكن، من يريد أن يعيش بشكل جيد، وقد أمعن النظر في مثل هذه الحياة المهينة، هل يتخلّى عن ذلك، ويعيش حياة الذلّ، دون هدف أو غاية؟

من يخطِّط لكسب، ولو قطيع صغير من الماشية، فلن يقتنع بحياته هذه، ولن يعتني بقطيعه الصغير. سيطارد الملذّات تاركاً قطيعه لأحد الرعاة أو الأطفال؛ ومن ثَمَّ يصبح قطيعه غنيمة لكلّ أنواع اللصوص والنُهّاب، وسيموت في حالة مزرية. المرء منهم سيخسر أكثر من ذلك، ولن يتغلَّب على إغراء المكائد السرّية وتفاهة

القيـل والقـال والمشـاجرات. لـن تكـون لـه أهمّيّـة فـي المجتمـع، وسـيتورّط فـي كلّ أنـواع الفحـش والخـداع والحِيَـل القـذرة.

آخـرون، ممـن لديهـم بعـض النفـوذ، يتركـون ممتلكاتهـم- أيضـاً- للغربـاء. (احـمِ هـذه الممتلـكات). يسـلِّمون أنفسـهم إلـى اللغـو، ويطوفـون مسـتَجدين، فـي كل مـكان.

اليـوم، النـاس لا يقـدّرون قيمـة الفطنـة والسـمعة الحسـنة، بـل مـن لديـه القـدرة علـى خربشـة الشـكاوى واللفّ والـدوران علـى شـخص مـا، هـذا هـو مَـنْ يُحتَـرم. مـن ينجـح فـي ذلـك، ربَّمـا يكـون فقيـراً ومعـدم التفكيـر، وهـو مـع ذلـك يُمنَـح منزلـة مـن الاحتـرام، ويكـون له شـأن. وتُقـدَّم لـه القطعـة الدسـمة مـن اللحـم، وجـواد قـويّ، مثـل هـذا الوغـد يكسـب، بسـهولة، وبقليـل مـن التملُّـق، حظـوة (بـيْ) بسـيط،: «كلمـة واحـدة منـك، وسـأدخل وسـط النـار مـن أجلـك» وهـذا يكـون كافيـاً دون أن يطلـب الحصـول علـى طعـام شـهي وملابـس لائقـة، وأن يمتطـي جـواداً رائعـاً، ويتمتّـع بالاحتـرام.

البـيّ لا يأسـف علـى خسـرانه السـلام ولا تبعاتـه، قبـل أن يتحـدّث إلـى أي شـخص، هـو يبحـث عـن النصيحـة مـن هـذا المحتـال الـذي يذعـن خوفـاً مـن خسـرانه ثقـة البـيّ، إن هـو سـأل نُصّاحـاً آخريـن. «ليكـن اللـه معـك»، سـيقول المحتـال بخنـوع، «كيـف تفكِّـر فـي هـذا الأمـر البسـيط؟»، ثـم يذهـب لاقتـراح حِيَـل؛ واحـدة أسـوأ مـن

الأخرى، ويغرز الشكّ عند الناس وعند البيّ.

في نهاية المطاف، البيّ نفسه لا يعود محلّ ثقة من الناس، إذا اختلف أحد الفطناء مع البيّ سيظهر الوغد في هذه الأثناء: «أترى؟ ألم أحذِّرك منهم؟»، ليصبح هذا البيّ السادج عجينة في يديه.

بهذا الشكل، يكرِّس الجيل الحالي فكره، وبهذه الطريقة يعيش.

43

وُهِـب الإنسـان الجسـد والـروح. يجـب علـى المـرء أن يعـرف الخـواص الفطريـة، وتلـك المكتسـبة بالكـدّ والممارسـة.

الحاجـة إلـى المـأكل والمشـرب والنـوم غرائـز طبيعيـة. الرغبـة فـي التعلُّـم تأتـي ضمـن الغريـزة الطبيعيـة أيضـاً، لكـنّ الفطنـة والتعلُّـم يأتيـان مـن خـلال العمـل؛ فبالاسـتماع، وبالنظـر، وباللمـس باليديـن، وبالتـذوُّق باللسـان، وبالتنشُّـق بالأنـف، يبلـور المـرء فكـره عـن العالم.

الشـعور أو الإحسـاس بالسـعادة أو اليـأس يُسـتقبَل مـن خـلال خمـس حـواس، ويوجّـه عقـل الإنسـان وفقـاً لمـا يـراه ومـا يقدِّمـه، فـي صـور محدَّدة.

رضـاك عـن الحسـن، ورفضـك للسـيِّئ أمـران طبيعيـان فـي الإنسـان. فـي البدايـة تكـون الصـور ضعيفـة، وعلـى المـرء أن يسـعى فـي تطويـر هـذه المعطيـات؛ بـدون عنايـة واهتمـام مناسـبَيْن يذبـل المـرء،

ويصبح عقيماً، أو يموت.

الإنسان الذي يمعن النظر، ويستمع جيّداً يحيط بمعرفة واسعة عن العالم، ويكسب الكثير: سيكون قادراً على التفكير النيّر، ويميّز بين المفيد والضارّ.

الشخص الذي يحلِّل الحقائق والأحداث هو متَّقد الذهن.

الجهول الذي لا يستخدم عقله، وغير معتاد على العمل يلقي بتفاهته على الله: «ما عساني أفعل إن لم يمنحني الله عقلاً؟» أو «الله لم يخلقنا سواسية». هكذا يبرِّر موقفه. لكن، أليس الله هو الذي ميّزه بالسمع والبصر، ليتذكر ما سمعه وما شاهده؟ هل قال الله له: كل ملء بطنك، وتمتّع بالملذّات، واكتفِ بالتفاخر، وتحوَّل إلى حيوان، وافقدْ كلّ الثروات الروحية؟

سيجادل البعض: «حسناً، العقل النيِّر يأتي مع الوقت، لكن الطموح هبة طبيعية، الذي يزخر بقابلية واستعداد للخير هو ذو عقل جيّد. الذين يفتقرون إلى الموهبة هم أغبياء، على أيّة حال»، مع ذلك، هذا خطأ، أيضاً.

في الحقيقة، الأطفال لديهم طموح، وهذا مؤكَّد، كما قلنا للتو: الموهبة والفكرة تكونان ضعيفتين في البداية، لكن، ألا رعيتهما وحَسّنتهما؟ حتى مهارة الحِرفي، تتحسَّن يوماً بعد يوم، إذا كان

وراءها الحماس. ما لم تمارس مهارتك فسوف تفقدها، وتتحوّل إلى إنسان آخر، دون أن تشعر. أليست المهارة والكفاءة، حين تهجرها، تحذيراً لك لكي ترتقي بها، وتعلي من شأنها؟ بذل الجهد الأعظم في استردادها أبهظ من الاحتفاظ بها حينها.

المواهب الذهنية متعدِّدة ومختلفة، ولها أكثر من وصف، النشاط الذهني للمرء يمكِّنه من صون مهارة التجارة لزمن طويل؛ لذلك فإنه من دون العناية الوافية تتناقص المهارة، وتذهب، دفعةً واحدةً، القوّة المعوَّل عليها. سيكون من المستحيل استرداد هذا النشاط الذهني.

قوّة الروح الإنسانية تمتلك ثلاث خواص، يجب التعلُّق بها والاعتزاز بها، بدونها يتحوَّل المرء إلى حيوان:

الأولى تسمّى (عنصر القوة الدافعة)، هذه القوة لا تساعدنا على التركيز والسمع فحسب، بل تمنحنا الإدراك المستنير للسبب والنتيجة. نَهَم القراءة لا ينفع العقل دون هذه الخاصّية، لأنه لا يقدِّم النتيجة أو الفعل المناسب في الوقت المناسب، أو التفكير الصحيح والقول الصحيح في اللحظة المناسبة، وتكون متأخِّراً دائماً، وسوف تضيع منك الفرصة، وتعيش طوال حياتك في غيظ: «يا للأسف، كان عليَّ فعل هذا وذاك، في اللحظة المناسبة».

الثانيـة تُسَـمّى (سـحر قـوّة المقارنـة)، عندمـا تتعلّـم شـيئاً جديـداً تشـرع فـي مقارنتـه بأشـياء مماثلـة. هـل هـذه الأشـياء متماثلـة فـي كل مـكان، أم أن تماثلهـا فـي بعضهـا، ممـا لـه علاقـة بهـا فحسـب؟ لـن يسـتريح عقلـك حتـى تتمكّـن مـن شـرح المسـبّبات، وتؤكّـد الفرضيـات.

الخاصّيـة الثالثـة للـروح الإنسـانية تسـمّى (رقّـة الشـعور)، وفيهـا يجـب أن تصـون قلبـك مـن أربـع رذائـل: الغـرور، وحـب المـال، والطيـش، والإهمـال. الانطبـاع الأوّلـي عـن العالـم ينعكـس علـى مـرآة، مثـل طهـارة قلبـك.

هـذه الانطباعـات بمثابـة الغـذاء للعقـل، وهـي تبقـى فـي الذاكـرة إلـى وقـت طويـل. لكـن، إن لـم تحافـظ علـى نقـاء القلـب، مـرآة روحـك، فسـتنمو فـي العتمـة، ويصبـح كل شـيء ضبابيـاً ومشـوَّهاً؛ ومـن ثَـمَّ فـإن فكرتـك عـن العالـم تضحـي مشـوّهة.

كل مـا تكسـبه يأتـي بالعمـل، إلا إذا كنـت علـى درايـة مألوفـة بحَـلّ المشـاكل، سـتجد صعوبـة فـي الاحتفـاظ بمـا لديـك، إلا أنـه مـن الصعـب- بالمقـدار نفسـه- الاحتفـاظ بثروتـك الروحيـة التـي اكتسبتها. وبالمناسبة، يمكـن للتعلُّـم والـذكاء أن يسـبّبا ضـرراً كبيـراً: عـدم معرفـة هـذا وفقدانـك الحـذر يُخسِّـرانك مـا اكتسـبت.

ثمّة مقياس لكلّ شيء على الأرض، بما في ذلك الأشياء الجيِّدة في الحياة، إنها نعمة عظيمة أن يكون ثمة معنى لهذا القياس، حقيقةً، إن القدرة على التفكير جديرة بالتمجيد، لكن بعض الناس لا يعرفون قياساً لهذا: يفقدون حسن تفكيرهم والفطرة السليمة. على المرء أن يكون معتدلاً في أكله وشربه وفي الترويح عن النفس وفي تحصيله للمال وفي الحيطة والحذر. وكلّ إفراط مُهْلِك.

الحكماء قالوا قديماً: «ما نسعى إليه، بإصرار، نجده شرّاً». يجب أن تعرف صفتَي القوّة الروحية اللتين عرّفناهما بكل من: (سحر قوّة المقارنة)، و(عنصر القوّة الدافعة) فهما تخفيان الأشياء الجيّدة والأشياء الشريرة، في العالم.

الرغبة في السيطرة والأنانية والغضب والخداع وكل ما يلوث الإنسان، تنبع من مصدر واحد؛ لذلك فإن قوّة المرء الروحية يجب أن توجَّه نحو تحسين كلّ ما هو جيِّد ومفيد، ووأد كلّ ما هو فاسد وأثيم، في المهد.

العقل يميّز مابين المفيد والضارّ، لكن، حتى قوّة العقل لا تهزم الشرّ أحياناً. ينجح، فقط، من يجمع في نفسه بين قوّة العقل وقوّة الإرادة، ويكون مثل الجواد العربي السريع، ويبسط سلطانه على كلّ شيء.

لكـن، إن كانـت هـذه الخـواصّ ضعيفـة، أو غابـت إحداهمـا، فربّمـا تنقلك روحانيتك إلى التوحُّش، الجواد الجامح يقذف بك: على الصخور تارةً، وفي الماء تارةً أخرى، أو في لجّ لا قرار له. أنت عاجز أمام هذا التهوُّر وهذه الفوضى، بقفطانك الملوَّن المتطاير وعينيك الشاخصتين إلى السماء...

وحتى آخر أيامك، سوف لن تمسح العار الذي لحق بك.

44

ذاك البائس جدّاً ومعدوم الطموح بين الرجال.

ثمّة تطلُّعات مختلفة. هؤلاء الذين يتوقون إلى شيء لا يناسب قوّة إرادتهم، أهم موهوبون أم لا؟ إنهم متلهّفون للإطراء، سواء عن استحقاق أم عن غير استحقاق. الناس يخلطون الأشياء، بعضها مع بعض، أحياناً يثقون بفكرة شخص ما عنهم أو فكرته هو عنهم، إنهم يتوقّعون الثناء من الناس الذين يعيشون معهم، وليس من الغريب، تماماً، البعض يتوقون إلى التبجيل والاحترام، وآخرون إلى الثروة، بغضّ النظر عن مصدرها، سواء أكانت من جشع أم كانت من براعة. «الذي أصاب ثروة لا خطيئة له» أو «الثري مشرق الوجه»، هذا ما يقولونه، واعلم أنه لا يلومهم أحد، إنهم يرون الشرف والفضيلة في الثراء، يحكمون على المرء بطرق فاسدة، وهذا هو الحال فعلاً، ولكن، من وجهة نظر إنسانية، هذه أبغض الرذائل.

بعض الناس يقلقون، في توقهم إلى التمجيد والثناء عليهم؛ كونهم أبطالاً، أو أولياء، أو بيات، في حين لا يهتمّ آخرون بنعتهم بالمخادعين. سينفخهم غرور الشهرة، وسيحاولون كسب فائدة، حتى من هذا النعت.

كلّ شخص يطمح إلى شيء ما، ولا يتوق إلى قراءة أفكار الكتب، بل وجوه الناس: «حسناً، هذا يجب أن يكون ممتازاً اليوم، وباستطاعتي كسب شيء ما». قبل أن تكسب معرفة من الكتب، من الضروري- أوّلاً- تطهير الروح من الأفكار القذرة، وساعتها، فقط، يمكنك القراءة.

إذا فضّلت قراءة وجوه الناس لا تفتعل ذلك، محاولاً إظهار روحك بمظهر النقاء، لأنه لا أحد يعرف ما في نفسك. كما يقال: «كلما كانت روحك تتوافر على طيّات وطيّات كنت صلباً ومنيعاً، بحسب الحالة التي تعيش».

إذاً، كوّن رأياً لنفسك، واعرف ما تتعلَّمه، وإلى ماذا أنت توّاق.

45

كلّ الأدلّـة علـى وجـود اللـه الواحـد الأحـد القديـر الصمـد تـردِّده ألسـن آلاف البشـر، عبـر آلاف السـنين، وكلّ الأديـان تـرى أن الحـبّ والعـدل مـن صفـات اللـه سـبحانه وتعالـى.

نحـن لسـنا ديمورغوسـيّين (مخلوقـات مادّيّـة)، بـل نحـن مخلوقـات بشـرية، نعـرف العالـم بخلـق الخالـق. نحـن عبـاد المحبـة والعدالـة، ويختلـف بعضنـا عـن بعـض فـي كيفيـة فهـم إبـداع العلـيّ القديـر.

نحـن مؤمنـون وعُبّـاد، وليـس فـي وسـعنا القـول إننـا نسـتطيع إجبـار الآخريـن علـى الإيمـان والعبـادة. إن مصـدر الإنسـانية همـا المحبّـة والعدالـة، إنهمـا كلّيّـة الوجـود، وقـرار كلّ شـيء، إنهمـا سـنّة الخلـق الإلهـي. حتـى طريقـة الجـواد فـي ظفـره بالفرس تأتـي بإظهـار الحبّ.

الذي يؤثِر مشاعر الحبّ هو رجل حكيم وعليم.

لا حاجة لاختراع علم أو تعليم، بإمكاننا مشاهدة إبداع الخالق للدنيا، وإدراكه، وفهم التناغم فيه، بعقولنا.

صدر في سلسلة كتاب الدوحة

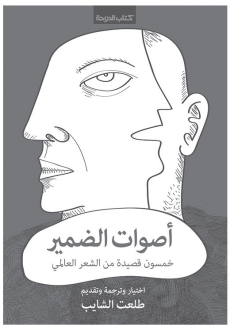
1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
	• فتنة الحكاية جون أيديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي

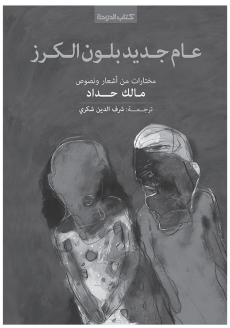
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلي العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير" - مختارات شعرية	
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زِينة المعنى (الكتابة ، الخط ، الزخرفة)	يوسف ذَنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق (تحوُّلات الصفوة العارفة في المجتمع العربي الحديث)	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت - ترجمة وتقديم: بوداود عمير
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة: عبدالسلام الغرياني

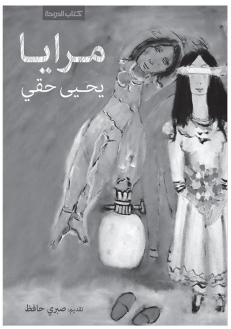
يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني **www.aldohamagazine.com**

صدر في سلسلة كتاب الدوحة

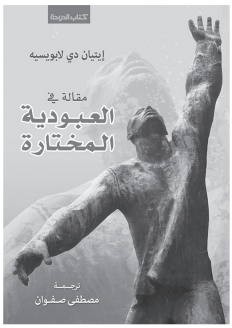












يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني **www.aldohamagazine.com**

آبـــاي

كتاب الأقوال

يُعَدّ (آباي) عميد الأدب الكازاخي الحديث، ويعتزّ باللغة الكازاخية وبالشعب الكازاخي. وبالمقابل، يجلّ الكازاخ أديبهم الكبير، ويتغنّون بشعره، وبأدبه، وبقصصه، وبحكمه.

كتب أعماله باللغة الكازاخية القديمة السائدة ذاك الوقت، ذات الحروف العربية، والآن، نجد أعماله باللغة الكازاخية الحديثة وباللغات الأخرى، حيث تُرجمت مؤلّفاته، وبخاصّة «كتاب الأقوال»، إلى أغلب لغات العالم.

وزارة الثقافة والفنون والتراث
الدوحة - قطر
www.aldohamagazine.com